الجمهوريــة الجزائريـة الديمقراطيـة الشعبيـة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

المقاصد التداولية في تلقي وصايا ابن عربي

مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: لسانيات النص

إعداد الطالبة: جمعة نعامي

نوقشت بتاريخ: 2017/05/21

أمام اللجنة المكونة من السادة:

د/ حسين زعطوط	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	رئيسا
د/ خديجة عنيشل	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مشرفا
د/ محمد رضا عياض	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مناقشا

الموسم الجامعي: 2017/2016

الجمهوريــة الجزائريـة الديمقراطيـة الشعبيـة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

المقاصد التداولية في تلقي وصايا ابن عربي

مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: لسانيات النص

إعداد الطالبة: جمعة نعامي

نوقشت بتاريخ: 2017/05/21

أمام اللجنة المكونة من السادة:

د/ حسين زعطوط	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	رئيسا
د/ خديجة عنيشل	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مشرفا
د/ محمد رضا عياض	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مناقشا

الموسم الجامعي: 2017/2016

بسم الله الرحمن الرحیم

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ

الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

سورة الرحمن، الآيات:1-4

وصَّى الإله وَأَوصَت رُسْـــلُـــهُ فَلذَا كَانَ التَّأَسِّي بِهم مِنْ أَفضل العَمَلِ

لَولَا الوَصيَّةُ كَانَ الخَلقُ في عَمَهٍ وبالوَصيَّة دَامَ المُلكُ فِي الـــــــدُّوَلِ

فَاعمَلْ بهَا وَلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَـــهَا إنَّ الوَصيَّةَ حـُـــكْـــمُ اللهِ فِـي الأَزَلِ

ابن عربي: الفتوحات المكيَّة

شكر وعرفان

إنَّ من تمام الشكر شكر الله على نعمة العلم والعقل والهداية المحمدية

نشكره أن جعل الوصيَّة كلاما أبقى وجوه الخير وخلّد القيم...

شكرا يوفي حقَّ أمَّهاتنا وآبائنا علَّة وجودنا، ولَّدوا فينا عزيمة وقـــــدوة حتى نبلـــــــــــــــغ القمم.....

شكرا يوفي حقَّ أساتذتنا أن أوقدوا سراج العلم وكتبوا في رقيم

صفحتنا فكرا ظلَّ يعمل بوصيتهم فينا...وكان قلمهم كلمة طيّبة

تزرع قيما في أرض قلوبنا فصرنا ثمارا تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربّها

شكرا لنعمة القرآن وأهله سراج الأمم، حكمة وعلم وخلق ورفعة في السموات العلى

شكرا لكلّ من ساهم بحرف إحسان، بأسمائهم وأرواحهم ودعائـــــــــــــهم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموجب الرحمة القائل في كتابه العزيز ﴿ والصلاة والسلام على هادي الأمَّة سيّدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما وبعد :

إنَّ ما تتميَّز به الوصيَّة بوصفها فعلا تواصليًّا، مستمرًّا في الزمن وبحسب التواتر الذي أقامها خطابا وكلاما متولدا جيلا بعد جيل، جعلها تتبوأ في نظرنا أعلى مستويات التداول، وذلك لأمور منها:

1-أنَّها ذات صبغة دينيَّة، وهويَّة ربانيَّة.

2-أنَّها فعل تواصليّ، لا يقف عند حدود التخاطب بها بقدر ما جعلها كلاما ينشئ الممالك والدول والاعتقادات.

3- أنَّ القائم بها، أو ناطقها يكون ذا قدرة عالية من العلم والمعرفة والحكمة.

أدَّى بنا الشغف أن نقارب نصوصها وفق المبادئ التداوليَّة، وعلى قمَّتها المبادئ المقصديَّة التي لا تنفكُّ عن مجمل المفاهيم التالية:

1-التواصل.

2-الإنجاز.

3-الحجاج والتأويل.

وسعيا منَّا لبلوغ هذه الغاية وقع اختيارنا على الموضوع الموسوم ب" **المقاصد التداوليَّة في تلقي وصايا ابن عربي**".

إنَّ لهذا الاختيار مبريين اثنين؛ أولهما: أنَّ المبادئ السلوكية والأخلاقية العمليَّة للمتصوفة جعلهم يتعاملون مع مفهوم الوصايا بأنَّها مقصد ربانّي في الخلق والوجود، وثانيها: أنَّ الدراسات التي تناولت خطاب الوصايا لم تخرج عن حدّ التركيز إمَّا على الشكل وإمَّا على الموضوع في حدود الانتقاء الذي يشكل فئة دون أخرى، وهذه الدراسات فيما نعتقد قد أغفلت قطاعا مهمًّا يؤسس لطريقتين في الكلام، طريقة الإجمال وطريقة البيان والتفصيل.

من هنا تبادر إلى أذهاننا ضرورة البحث في القانون الذي يؤسس للمقاصد التداوليَّة في أي كلام وفي أيّ خطاب وتصدَّر هذا السعي الحثيث باكتشاف مقصدين رئيسيين في وصايا ابن عربي:

1-تصدَّر باب الوصايا مقدمة شعرية، إجماليَّة مكثَّفة الدلالة، والإشارة.

2-جاءت باقي الوصايا على وتيرة البيان والتفصيل.

انطلاقا من هذا الطرح وعلى خطى منهجية واضحة تستند إلى الإجراءات المقصدية التداوليَّة، تولَّد لدينا الإشكال الآتي:

1-ما هي المقاصد الإجماليَّة في الوصيَّة الشعريَّة؟

2-ما هي المقاصد التفصيليَّة البيانيَّة في باقي الوصايا؟

3-هل الإجمال والتفصيل نمط في التفكير؟ أم هو خاصيَّة تخصُّ أنماطا عديدة من الأشكال التركيبية تسمَّى بهذا المصطلح؟

4-هل مصطلح البيان يخصُّ جانبا ظاهريا من النَّص، يتحدَّد في وضوح التراكيب وفصاحة الألفاظ؟

5-بماذا تميَّز المنطق الاستدلالي الحجاجي في وصايا ابن عربي ؟

وعلى أساس هذا الإشكال تكوَّنت لدينا خطة عمليَّة، نحاول على خطاها البحث في لبّ هذا الموضوع، فكانت تفاصيله كالآتي:

-مقدمة: وقد أتينا على طرف منها في بداية هذا الحديث.

-مدخلا نظريا: يضع البحث وموضوع الدراسة في صورته العلميَّة، يصحبه جملة من المفاهيم والمصطلحات والمبادئ الإجرائية الخاصة بالخطاب الصوفي والمنهج التداولي.

-فصلا أوَّلا: ضمَّ جزءا كبيرا من الإشكال الذي طرحناه، نتناول فيه قصد التواصل؛ إيمانا منَّا أنَّ هذا الأخير يشكّل الفضاء الأوسع لحقيقة التخاطب والتفاهم والتفاعل، ومن ثمَّ عمل الإجمال والتفصيل في استشراف المقاصد، وبلوغ الفهم.

-فصلا ثانيا: واحتوى الطرف الآخر من الإشكال، يتعلَّق بالبيان والحجاج، والمنطق الاستدلالي الذي سيعكف ابن عربي على اعتماده لبلوغ الغاية ونيل الهدف في الإقناع، فكان من ضرورة البحث أن عالجنا مقصد الحُجَّة ب" **الاعتبار**"، على أن يصحب هذا جملة من المفاهيم تخصُّ التقنيات الحجاجيَّة، والإقناعيَّة في وصايا ابن عربيّ.

-خاتمة: ضمَّت ما وصل إليه البحث من نتائج.

-ثبتا للمصادر والمراجع.

-ثبتا للموضوعات.

وتوسَّلنا بجملة من الدراسات أنارت لنا طريق البحث، وعمَّقت لنا الفهم، أحالتنا إلى النقاط التي لم تدرس، كان من أهمّها:

1-آليات التواصل في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع هجريّين، لآمنة بلعلى(رسالة دكتوراء)، جامعة الجزائر،2000..

2-الاستعارة في الخطاب الصوفي،لجرَّاح وهيبة(رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012.

3-بنية الشعر في الفتوحات المكيَّة لابن عربي، لقدور رحماني(رسالة دكتوراء) جامعة الجزائر، 2006.

يتطلَّب تعبيد طريق العلم والبحث اجتياز الكثير من العثرات، إلَّا أنَّ كل عمل إنساني يعوزه النقص، ولا بدَّ أن نعترف بمشقة الخوض في هذا النوع من الخطابات وهو الخطاب الصوفيّ، بخاصَّة رجل من أكبر رجالات التصوف وهو ابن عربي.

وعلى كلّ فإنَّ أهم ما يمكن قوله هنا أنَّ الخطاب الصوفي طريق في التفكير فريدة، تسعى إلى تنوير مدركات الإنسانية الحسيَّة والمعنوية.

وفي الأخير لا يسعنا إلَّا أن نردّ الفضل لأهله في بعث هذه الثمرة النافعة والكلمة الطيبة تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربّها، نخص بالذكر صاحبة الشرف والصبر الطويل الدكتورة خديجة عنيشل، والدكتور إبراهيم إيدير، والدكتور أحمد حاجي وأستاذة التصوف الدكتورة آمنة بلعلى، فلهم مني أفضل الشكر، وجزاهم الله خيرا.

والله من وراء القصد

بتاريخ 05/08 /2017.

مدخل نظري:

المصطلحات و المفاهيم

توطئة

1-الخطاب لصوفي والكتابة الصوفية

أولا: الكتابة الصوفية

ثانيا: الخطاب الصوفي وخصائصه

2-التداولية مقاربة معرفية للمقاصد

أولا: مفهوم التداولية

ثانيا: المقاربة التداولية للمقاصد

المقاصد: المفاهيم والمصطلحات

القصد في الثقافة العربية

القصد في الثقافة الغربية

توطئة

إنَّ العودة إلى الأوراق الصوفيَّة هي عودة احتياج العقل إلى الروح، فلم تصمد دعاوى التنوير العقلي طويلا، وبقيت أصواتها تطلب التوازن و الاعتدال، والعودة إلى عوالم الروح بعد أن اختزلها الغرب تحت طيات الحسّ والمادة والموضوعيَّة.

إن كان هذا هو الحال بالنسبة للغرب، فما بالك إذا وقفنا نستطلع حال الخطاب الصوفيّ عند المسلمين، لا شك أنَّنا سنتكلَّم عن المصدر الأول الذي بعث الميزان القيّم ذلك التوازن بين العقل والروح أو بين العقل والقلب، إنه بدون تردد القرآن الكريم .

يبدو أنَّ الاهتمام الواضح في الفترة الأخيرة، بتحليل الخطابات التراثية كألف ليلة وليلة والمقامات السردية، من قبل الباحثين العرب أمثال عبد الفتاح كليطو، و جمال الدين بن الشيخ، وكمال أبو ديب وغيرهم قد أقصى من منظومته الخطاب الصوفي، بل ظلَّ هذا الأخير حبيس القراءات الإيديولوجية والفلسفيَّة، ولم يول هؤلاء الباحثين أهميَّة لكيفية اشتغال النصوص الصوفيَّة وخصائص لغتها.

إنَّ الخطاب الصوفي في نظرنا تجسيد لمستويات عالية من المعاني المتولدة، لأنَّها تجربة روحيَّة و معرفة قلبيَّة صنعت بواسطة اللغة عوالم، و خلفت آفاقا من المقاصد عجزت حينها العبارة أن تنقل هذه التجربة، و قد عبَّر الباحث طه عبد الرحمن عن امتلاك النُّصوص الصوفيَّة لقمة الحوار لما تضفيه من فلسفتها المبنية على الأخلاق، كما تتأسس على نظرية مقصدية تبحث في الغايات والحقائق والأسرار.

1-الخطاب الصوفي و الكتابة الصوفية:

أولا: الكتابة الصوفية:

نوَّه محمد مفتاح في كتابه" **ديناميَّة النص**" على سيرورة النَّص الصوفيّ قائلا:" الكتابة كما هو معلوم جنس تدخل تحته أنواع متعددة، مثل الكتابة الفقهية والكتابة الكلامية (نسبة إلى علم الكلام)

والكتابة الشعرية والكتابة النحوية...فالكتابة الصوفيَّة إذن هي جزء من كل، تشترك مع هذا الكلّ في وسيلة التعبير، وهي اللغة الطبيعيَّة اللغة العربية".[1]

تطرح هذه الفكرة إشكالية تصنيف الكتابة الصوفيَّة، أهي كتابة أدبيَّة أم كتابة أيديولوجية أم أنَّ هناك فكرة مناقضة تدعو بإطلاق مصطلح "**لا نَص**"[2] على الكتابة الصوفيَّة؟

يجيب محمد مفتاح معقبا كالتالي" لابُدَّ من توفر أركان أربعة في كل كتابة، ومنها الكتابة الصوفية، وإذا ما اجتمعت تلك الأركان جميعا في أي كتابة فإنَّها حينئذ تكون جنسا نقيًّا غير مشوب بغيره والأركان هي:

الغرض المتحدث عنه، والمعجم التقني، وكيفية استعماله، والقصدية، وهذه جميعا تكون وحدة غير قابلة لتجزئة ".[3]

فحقيقة الكتابة الصوفية إذا هو الهدف الأول والمقصد من التعبير الذي يشدو على الإطلاق "تكوين إنسان كامل"[4] في قمة التزكية النفسية والروحية.

---

[1]- دينامية النص، تنظير و انجاز، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1987 ص129.

[2]- يعدُّ هذا الطرح من بين الإشكاليات التي واجهت آمنة بلعلى أثناء تأليفها كتاب: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل تيزي وزو الجزائر، ط3، 2009، ص11.

[3]- دينامية النص، ص130.

[4]- نفسه، ص129.

لكنَّ المعرفة بهذا المعجم المصطلحاتي لألفاظ الصوفية، وكيفية استعماله لا يكفي، ما لم يُثمَّن بالتَّوجه نحو صوب المقاصد التي تكاد تفيض على العبارات عند كل قراءة، والقول بالعكوف على فهم المصطلحات لفهم النصوص الصوفيَّة يجرُّ إلى قراءة منتهية، تنتهي بفك تعريف المصطلح[1].

ثانيا: الخطاب الصوفي:

كثيرة هي الدراسات التي تطرقت لموضوع التصوف وأصل التسمية، وربما أدَّى بثلة من الباحثين ردَّ الأصول الصوفيَّة إلى أصول سرياليَّة، وهنديَّة وفارسيَّة، إلاَّ أَّننا نروم –هنا– للتركيز على كيفية اشتغال هذه اللغة الجديدة عندهم.

على كلّ فإنَّ التجربة الصوفية " هي تجربة تتحرَّك في إطار ذاتية معيشة، بعيدا عن الحروف و الكلمات ... بعيدا عن الآخرين، وهي تجربة قرب وعرفان مجالها (الأول) الحيوي: القرآن و السنة– تجربة إسلامية من نمط قرآني خاص ﴿ ﴾ (281/2)

﴿ ﴾

[2](191/3)

وأدَّى عدم تمييز الكثير من الباحثيين بين التجربة واللغة التي تعبّر عنها إلى دعاوي مفادها أنَّ **التَّصَوُفَ** الإسلامي ذو أصول يونانية وتارة ذو أصول فارسية وهكذا.

---

[1]– هذا ما نصبو إلى طرحه في ثنايا هذا البحث" **المقاصد**" واشتغال وصايا ابن عربي، في حوار بين التجربة واللغة والمتلقي.

تداركت آمنة بلعلى اختزال محمد مفتاح للنصوص الصوفية محور دراسة، إذ أنه اعتمد على الكتابة التعليمية، ولو أنه تتبع الظواهر النصية والخطابية في نصوص أخرى مثل نصوص **ابن عربي** أو **النفري** لكان أثرى للدراسة.

[2]– المعجم الصوفي، سعاد الحكيم، دندرة، لبنان، ط1، ت1981م، ص14.

وجوهر المسألة بين روح التجربة واللغة أنَّ هذه الجوانية تأخذ " أشكالا لدى التعبير عنها: تأخذ لغة (الآخرين) وصفا منسجم تماما مع السنة، " أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم" فالخطاب تنزَّل من عوالم " الذات" في إطلاقها إلى حدود الحرف إلى إفهام الآخرين إلى قدر عقولهم"[1].

بعد أن ذكرنا حدود الكتابة الصوفية وحدود التجربة بقي أن نُنوّه بأنَّ النُّصوص الصوفية" حصَّلت تحصيلا كافيا صيغها الصرفية، وقواعدها النحوية، وأوجه دلالات ألفاظها وأساليبها في تعبير والتبليغ"[2]يمكن القول إذن أنَّ هذا الخطاب يمتلك:

1-الخاصية النصية: وهو ما أبرزناه في العنصر السابق لكون النَّص الصوفي يمتلك من الخصائص البنوية والوظائفية ما يكسبه خاصيَّة الانسجام والنصية.

2-الفعالية الخطابية: ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ نصوص المتصوفة تمتلك من المقاصد

والأغراض ما يجعله فعل الكتابة بحدّ ذاته الجسر الذي يمتدُّ إلى القارئ محدثا ذلك التفاعل الذي يجري ضمنَ"سياقات ثقافية معقدة، ومقامات ذاتية تفاعلت مع تلك السياقات"[3].

فما دام هذا الخطاب يستدعي الأطراف المشاركة وهو المتلقي أو القارئ، فإنَّه ضمنيًّا يجسد نوعا من القُرَّاء في طيَّات هذا الخطاب فقد يكون:[4]

- شخصية المولى: وهو الذي ولَّاه الله وتوَّلاه.
- شخصية العالم: وهو المتمكّن من العلوم الشرعية وتَتلمذَ على أيادي رجال الصوفية.
- شخصية صاحب الحال: الذي حلَّ به حال من الله.

---

[1]- المرجع نفسه، ص14.

[2]- في أصول الحوار والتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000 ص29.

[3]-تحليل الخطاب الصوفي، ص19، و ينظر نقلا عن الكتاب السابق: الكتابة والتجربة الصوفية (أنموذج محي الدين بن عربي) منصف عبد الحق منشورات عكاظ، ط1، 1988، ص133.

[4]- ينظر: ابن عربي و مولد اللغة جديد، سعاد الحكيم، دندرة، لبنان، ط1، 1991، ص46-53.

- شخصية السالك: وتتجلَّى في الطرق الصوفية وغايتها تعليمية.
- شخصية العارف بالله: وهو الذي طهَّر الأعماق وانتظرَ تجليّ المعرفة.

وتبعث تجسيد هذه الشخصيات جميعها في الخطاب الصوفي إلى إشكالية مؤداها فهم القارئ للنَّص، لذلك يعدُّ الخطاب الصوفيُّ في جانبه االظاهري" خطابا مناقضا للحقيقة الشرعية من جهة نظر المتلقي السلبي، لذلك نُبذَ هذا الخطاب وأُقصيَ من دائرة الكتابة الأدبية لأنه خاطب الناس بغير ما ألفوه"[1].

والسبب في ذلك كما ذكرنا سابقا اللغة الإبداعية التي اخترقت حدود اللغة المألوفة وبعودة الدراسات المعاصرة للتأويل كُتبَ لهذا الخطاب العودة إلى الأدب العربي وأصبح "مادَّة بكرا تَتَحَادَّ بها الدراسات والتأويل من كل جانب"[2]، وملامسة أكثر للواقع يتَّضح أنَّ الخطاب الصوفي عاد بعودة الإنسان للتحقق من وجوده والتحقق بمقام الإحسان" **أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**".

3-الفعالية الحوارية:

لم يكن للمتصوفة هدف الدخول في صراع الطوائف الفكرية،[3] كالفرق الكلامية والفلسفية، ولا فرض منهج فكري أو تربوي في الحياة، بل هو حوار يمتدُّ من الذات المنتجة إلى المخاطب، ووسائل هذه الذات في المعرفة مختلفة ومتنوعة، تتلخَّصُ في علم الظاهر والباطن " لهذا يقول الغزالي: سئل بعض العلماء عن علم الباطن ما هو؟ فقال: هو سرٌّ من أسرار الله يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا، ويقول أبو يزيد :

[1]- شعرية الخطاب الصوفي، عبد الله خضر محمد، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016، ص69.

[2]- نفسه، ص72.

[3]- ينظر: تحليل الخطاب الصوفي، ص19.

ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نَسيَ صار جاهلا إنَّما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس"[1].

و بهذه الخاصيَّة يكون الخطاب الصوفيُّ قد تبوأ أعلى مراتب الحوار، كما ذكر طه عبد الرحمن[2]. وفيما يلي بيان لما بسطنا فيه القول سابقا[3]:

- الخطاب الصوفيّ آلية كاتمة ومنفتحة في الوقت نفسه على التأويل.

-التعامل مع النَّص القرآني على أنَّه فضاء للتأويل كذلك[4].

-يتعامل المتصوفة مع القراء بالطريقة نفسها، فرامت نصوصهم إلى استعمال الرمز والإشارة.

- تتجاوز التجربة الصوفيَّة حدود الذات والنفس، لتعبر الحدود اللغوية والثقافية لجميع اللغات، ويصح أن توصف بالعالمية الإنسانية.

-الممارسة النصية التي أفرزتها الكتابة الصوفية ما هي إلَّا أفعال للمقاصد والمعرفة الربانيَّة في طريقتها إلى الله، وهذه الرحلة تتطلَّبُ رياضات روحيَّة شاقَّة

---

[1]-الغزالي هو: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف متصوف (ت: 450هـ – 505هـ)، من مصنفاته: تهافت الفلاسفة، المستصفى في علم الأصول، ينظر: ترجمته في: إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي، دار ابن حزم، ط1، 2005، ص5.

[2]-طه عبد الرحمن باحث مغربي، فيلسوف يعدُّ من أشهر الفلاسفة والمفكرين في مجال التداول الإسلامي، مند بداية السبعينات من القرن 20، من بين مؤلفاته، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، تجديد المنهج في تقويم التراث، وله مؤلفات في الفلسفة والأخلاق، ينظر: شبكة ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

[3]- ينظر: تحليل الخطاب الصوفي، آمنة بلعلى، ص20-21-22.

[4]- التأويل عند الصوفية يختلف بالمفهوم الشائع " جهدا "عقليًّا ذاتيًّا لإخضاع النَّص الديني والفلسفي المفسر ومفاهيمه وأفكاره" بل هي علاقة تفاعل وتبادل بين المفسر والنص"و القرآن عندهم ظاهر وباطن، وسُمّيَ تفسيرهم (بالتفسير الإشاري)، ينظر: سيميائية التواصل و التفاهم في التراث العربي القديم، عبد الفتاح الحموز، دار جرير، عمان-الأردن، ط1، 2011، ص347-348.

لتصل إلى مقام الصفاء كما تتطلب طرقا لتحصيل العلم و المعرفة، يُلخّصها القول التالي[1]:

- التحصيل بالتعلم: و يتم عن طريق القلب والحس.
- الاشتغال بالتفكير: ويتم عن طريق القلب والعقل.
- الوحي : وهو العلم النَّبويُّ.
- الرؤيا الصادقة.

2-التداولية بوصفها مقاربة معرفية للمقاصد(المفاهيم والمصطلحات)

أضحت الدراسة التداولية بمباحثها المختلفة مصبَّ اهتمام الكثير من الدارسين ويرجع ذلك لإثارتها العديد من المسائل والقضايا وإجابتها عن السؤال المؤرّق: أين المعنى؟

و يبدو لأوَّل وهلة أنَّ أخد غمار دراسة اللغة الإنسانية وبيان وظائفها أمرا صعبا[2]، كما أنَّ تَقصيّ دقائقها في مستواها الفلسفي يؤدّي إلى مسالك غامضة يلتبس آخرها بأولها، وهذا ما يعلّل تواصل البحث في المعنى منذ حقب زمنية بعيدة مازالت تبعث بآثارها إلى يومنا هذا.

و تأتي أصل هذه الفكرة في كون اللغة شيئا متصلا بالطبيعة الإنسانية، عبر القدرة الإبداعية والإنتاجية للذهن، تضاف إليها القدرة العقليَّة التي تدرك الأشياء في العالم، وتبني عليها توجُّهَها منها وإليه.

قد يتحمَّل النَّص كما قيل أكثر ممَّا تتحمَّلُه اللغة، ويوجد في النَّص ما لا يستطيع التقعيد النحوي ولا الضبط المنهجي أن يحدَّه[3]، وهذا يصيُّرنا نحو موقف مقابل يبسط ظلاله في طرح السؤال أيمكن الدخول إلى كوامن النفس البشرية من النَّص و لغته؟

---

[1]- ينظر: إحياء علوم الدين ، الغزالي 3/ 21-25 نقلا عن: شعرية الخطاب الصوفي، ص34-35. و لمزيد من التفصيل ينظر: الرسالة اللَّدنية، الغزالي، ص111-122.

[2]- ينظر: اللغة و التواصل الشفوي، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، ط2012، ص8.

[3]- ينظر: اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، دليل محمد بوزيان وآخرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2012، ص9.

وبتعبير آخر هل البحث عن المعاني و المقاصد يستلزم ركوب مطيَّة اللغة ومواضعاتها وربطها بالاستعمال و التعاقد الاجتماعي؟ أم أنَّنا في رحلتنا هذه في البحث عن المقاصد يتوجَّب آليات متعدّدة ومعقدة أحيانا تتهيَّأ التداولية بجميع آلياتها واتجاهاتها للتَّصدي لها؟

سنبسط ما تيسَّر لنا في هذه الوريقات من مفاهيم أوليَّة تتعلق بالمقاربة التداولية، والخطوط الرئيسة المتداخلة لدراسة المقاصد.

أصبح من الممكن القول اليوم أنَّ التداولية " في سعيها إلى سبر الذات معرفة عميقة تتغلغل في جوهر الكائن الإنساني في علاقته مع الأحداث والعالم واللغة التي تمثّل أداة المعرفة والاتّصال...و محاولة التعرف على سبل الوصول إلى مقاصد المتكلمين في ضوء ظروف التخاطب"[1].

ورهان التغلغل في جوهر الكائن البشري لمعرفة دوافعه وغاياته ومقاصده أدَّى بالتداولية إلى الانفتاح على علوم عديدة لمقاربة الخطابات، على أنَّها قد" هزَّت كثيرا من الوثوقيات والقناعات في التحليل اللساني الدلالي "[2]، أي أنَّ اللغة وحدود المواضعة الاجتماعية لا يكفي وحده، بل يستلزم لمعرفة المعنى والمقصد إجراءات أخرى تروم لدراسة الذوات المشاركة في التواصل اللغوي، ومعرفة عميقة بظروف إنتاج الخطاب.

من هنا تصدَّت التداولية لدراسة هيمنة المقام على استعمال اللغة بدءا من منتج الخطاب وهو المتكلم وصولا إلى المتلقي إلى الظرف الماديّ الحقيقيّ.

أولا: مفهوم التداولية:

1-التداولية في اللسان العربي:

[1]- الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث ، عمان الأردن ، ط1، 2011، ص 115.

[2]- الكتاب نفسه، ص 115.

جاء في **المقاييس** أنَّ" الدَال والوَاو واللَام أصلان أحدهما يدلُّ على تحوُّل الشيء من مكان إلى مكان، والآخر يدلُّ على ضعف و استرخاء"[1].

وجاء في **اللّسان** أنَّ مادة "دول" تحمل معان كثيرة:" يقال صار الفيء دُولَة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا ... وهو ما يتداولونه من المال فيكون لقوم دون قوم .. كي لا يكون الفيءُ دُولَة أي متداولا ... وفي حديث الدعاء حدثّني بحديث سمعته من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يتداوله بينك وبنيه الرّجال أي لم يتناقله الرّجال وترويه واحدا عن واحد إنَّما ترويه أنت عن رسول الله صل الله عليه و سلم ..."[2].

وعليه أمكن القول أنَّ جلَّ هذه المعاني تتواطأ على جعل مادة " **دَوَلَ**"[3] تفيد التحول و التغيُّر والتبدل من حال إلى حال.

وأوَّل من وضع المقابل العربي للمصطلح الأجنبي:" Pragmatique" هو الباحث المغربي الفيلسوف " طه عبد الرحمن" إذ يقول:" قد وقع اختيارنا منذ 1970م، على مصطلح " **التداوليات**" مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيكا"[4].

2-الدلالة الإصطلاحية:

التداولية أو التداوليات أو البراغماتية أو الوظيفية أو السياقية هي:" دوال متواترة في اللغة العربية في مقابل كلمة" Pragmatique" اليونانية المشتقة من "Pragma"

---

[1]- مقاييس اللغة، ابن فارس، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت- لبنان، ج2، دط، 1979، ص314، 315.

[2]- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج3، 2003، مادة (دول)، وتأتي أيضا بفتح الدال(دَولة)، وتفيد معنى الحرب" رجعت الدولة على هؤلاء أي بعدما هزموا انهزموا"، ينظر: التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، دار كنوز المعرفية، ط1، 2016، ص14.أما الدلالة الحديثة فلا تخرج عن معنى التدوال والتحاور وتبادل الرأي والمشاورة.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص14. ينظر أيضا: الوظائف التداولية للتخاطب السياسي و أبعادها الحجاجية، نور الدين أجعيط، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2016، ص12-13.

[4]- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ص28.

وتعني الحركة والفعل" Action"، بيد أنَّ مصطلح التداولية، يظلُّ أكثر استعمالا وشيوعا بين الباحثين"[1].

تُرجع جلُّ الدراسات أنَّ أوَّل ظهور للتداولية كان مع السيميائي شارل موريس الذي أشار إلى" أنَّ دراسة السيميوزيس أو صيرورة التدليل" Simossis" لها ثلاثة مستويات هي: التركيب والدلالة والتداولية وأوضح أنَّ هذه الأخيرة تبحث في العلاقة بين العلامات ومؤوليها"[2].

وتنهض التداولية بمعيَّة الخطاب فهي تستقطب" اهتمام نظريات الخطاب والتأويل لانشغالها بالبحث عن قوانين ضبط الشروط الاستعمال اللغوي في المقامات المتنوعة

وإيجاد آليات تحليل الخطاب وفهم مقاصد المتكلمين، فالتعبير الأوسع للتداولية هو أنَّها دراسة الفعل الإنساني القصديّ"[3].

نشتقُّ من هذا التعريف تخصيصا أكثر بمجال التخاطب والتواصل في كون التداولية" تعنى بدراسة المعنى كما يُعبَّر عنه المتكلم أو (الكاتب) ويؤوّله المستمع أو القارئ"[4].

وفي محراب هذا التفاعل والتداول تبني العلاقة فيما نعتقد على حضور الذوات المشاركة في الخطاب، فحضور الضمير" أنا" و "أنت" هو المفعّل الحقيقيّ لمعرفة الظرف السياقيّ الماديّ لذلك الحدث الخطابي.

و يسعى المخاطَب أو (القارئ) لإرجاع غرابة المعنى من الخطاب إلى مستوى يلائم الأعراف اللغوية السائدة وهذا مايبرّر حضور التأويل[5].

ثانيا: المقاربة التداولية للمقاصد

[1]– ينظر: التداولية (أصولها و اتجاهاتها)، ص 13.

[2]– المرجع نفسه ص15.

[3]– الوظائف التداولية، ص11.

[4]– التداولية (أصولها و اتجاهاتها) ، ص17.

[5]– التلقي و التأويل(مقاربة نسقية) ، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994، ص218.

لا يمكن الحديث عن المقاصد في المنظور التداولي[1]، دون الحديث عن الشبكة المفاهميَّة المؤسّسة لهذا الإطار وقد أثرت مجموعة التَّحولات في مجال البحث التداوليّ إلى توسيع الإجراءات والمفاهيم المنوطة بدراسة القصد وتأويل الملفوظات.

ونسعى في هذه الورقة العلمية القصيرة إلى إيجاز ما يمكن أن يخدم البحث، وعليه سيتمُّ التَّطرُّق إلى المقاصد ضمن النقاط التالية:

-المجال التواصلي للتخاطب.

-الإنجازية والقصدية.

-نظرية الملائمة وكفاءة المؤول.

-المقاصد والحجاج.

1-المقاصد: المفاهيم و المصطلحات:

1-1-القصد في الثقافة العربية:

1-1-1-القصد لغة: جاء في **اللّسان** أنَّ القصد" استقامة الطريق، قصد يقصد قصدا فهو قاصد، وقوله تعالى" وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ"[2] أي على الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين"، وفي الحديث:" كانت صلاته قصدا".

وفي **المقاييس**:" قصدته قصدا ومقصدا، ومن الباب أقصدك السهم إذا أصابه فقتل مكانه، وكأنَّه قبل في ذلك لأنَّه لم يحد عنه"[3].

وعليه تلتقي دلالات مادَّة " قصد" في معاني:

- التوُّجه.
- أنَّه يكون في الأفعال.

---

[1]-كان لمقالة يوسف السيساوي أثر بارز في بلورة المقاربة التداولية للمقاصد ورسم حدودها هنا، ينظر: التداوليات (علم استعمال اللغة)حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2011، ص467 وما بعدها.

[2]- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيد، مادة (قصد)، ص433-434.

[3]- مقاييس اللغة، ج5، ص95.

- أنَّه يكون في الأقوال.
- يعني التوسط بين الطرفين[1].

1-1-2-القصد عند الجرجاني:

ارتبط مفهوم" **القصد**"[2] عند الجرجاني-وهو من أئمة البلاغة العربية- بنظرية النظم وتأليف الكلام، إذ يرى أنَّ عملية الإسناد الذهنية سابقة لترتيب الكلام، من هنا ظهر عنده ما يسمَّى بمعاني النحو؛ إذ تُرَتَّب المعاني أولًا في النفس، ثمَّ يليها ترتيبا في التأليف الكلامي و" لا يتصور أن يتعلَّق الفكر بمعاني الكلم أفرادا، ومجردة عن معاني النحو، فلا يقوم في وهم، ولا يصحُّ في عقل أن يتفكَّر متفكّر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم..."[3].

إذن فعملية التفكر ترتبط بعملية الإسناذ الذهنية؛ وهي عملية إدراكية عقلية تتواجد في الذهن قبل أن تتواجد في التأليف الكلامي-عملية النظم- مرتبطة تداوليا بمعاني الاستعمال والتواصل، التي قال عنها عبد القاهر أنَّها تجري مجرى الفائدة.

1-1-3-القصد عند المحدثين العرب: طه عبد الرحمن:

---

[1]- ما ورد في اللسان كذلك:" ...وفي الحديث: القصد القصد تبلغوا أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل وهو الوسط بين الطرفين..." ص433-434.

[2]- يقول ابن عربي في هذا المعنى :" اعلم أنَّ كلَّ متلفظ من النَّاس بحديث، لا يتلفظ به حتى يتخيَّله في نفسه، ويقيمه صورة يعبّر عنها، لا بدَّ له من ذلك، ولمَّا كان الخيال لا يراد لنفسه وإنَّما يراد ليبرزه إلى الوجود الحسّي في عينه أي يُظهر حكمه في الحس فإنَّ المتخيل قد يكون مرتبة وقد يكون ما يقبل الصورة الوجودية..."، ينظر: قصدية التخاطب في وصايا ابن عربي، آمنة بلعلى، مقال، ص1، وينظر: التأويل الحواري بين ابن عربي ومارتن هايدجر، مجاهد جمال الدين، مقال، من مجلة الحوار الثقافي، ربيع وصيف 2012، ص217-218.للملاحظة لم نقف على الصفحة في الفتوحات لاختلاف الطبعات.

[3]- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود محمَّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ص410، وينظر: المقصدية عند عبد القاهر الجرجاني(دراسة تداولية)، فتيحة سوفلي(رسالة ماجستير)، 2015-2016، جامعة محمد خيضر بسكرة-الجزائر، ص29-30.

فالعرب بيَّنوا مفهوم" **القَصد**" وإن لم يبرزوه كمنهج تداولي حديث " **القصدية**"[1].

أما عند المحدثين العرب أمثال طه عبد الرحمن فيعطي مصطلح "قَصَدَ" ثلاثة معاني:

1- يستعمل الفعل: "قصد" بمعنى ضد الفعل : لغا"... كما كان اللغو هو الخلوُّ عن الفائدة أو صرف الدلالة، فإن المقصد يكون العكس من ذلك، هو حصول الفائدة أو الدلالة، واختَّص المقصد بهذا المعنى باسم" المقصود"، فيقال: المقصود بالكلام و يراد به مدلول الكلام.

2- يستعمل الفعل:" قصد" أيضا بمعنى هو ضدُّ الفعل " سها" ، يسهو لمَّا كان السهو فقدان التَّوجُّه أو الوقوع في النسيان، فإنَّ المقصود يكون خلاف ذلك

واختصَّ المقصد بهذا المعنى باسم " القصد".

3- يستعمل الفعل:" قصد" كذلك بمعنى هو ضدُّ الفعل "لها، يلهو" ، كما كان اللهو هو الخلو عن الغرض الصحيح و فقد الباعث المشروع ؟ فإنَّ المقصد يكون على عكس من ذلك، هو حصول الغرض الصحيح، وقيام الباعث المشروع، واختصَّ مقصد بهذا المعنى باسم "الحكمة"[2].

و قياسا لما ورد في هذه المفاهيم للمصطلح : قصد ، مقصد، يمكن الخروج بالنتيجة الآتية:

-القصد يكون من طريق الدلالة(المقصود).

---

[1]- يرجع أول منظر عربي للمقاصد إلى الإمام الشاطبي في مجال الأصول و العلوم الشرعية، لكنَّ طه عبد الرحمن يرجعها إلى المتصوفة باعتبارهم يبحثون على الأسرار والمقاصد والغايات وراء الظواهر، وينطلقون من التجربة الداخلية وهي الأحوال والمقامات.

[2]- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرمن، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص98.

يشتغل محمد مفتاح على مصطلح المقصدية في مشروعه النقدي، و يستعمل مصطلح المقصدية بدل القصدية، و ذلك نظرا للتباين الذي بينهما، فالمقصدية تجمع بين الوعي و اللاوعي، بينما يشير مصطلح" القصدية" إلى كلّ ما وراءه وعي، ينظر: تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص) المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط2، ص163.

نقلا عن الاستعارة في الخطاب الصوفي، جراح وهيبة، جامعة مولود معمري، 2012، ص87.

* سيتم في هذا العنصر محاولة تقريبية لمفهوم القصد مع ما يطرح من أفكار عربية حديثة في هذا الموضوع.

-القصد يكون بمراعاة الأحوال الداخلية للمتكلم ؛السهو و النسيان أو القصد والتوجه (المقصد).

1-2-القصد في الثقافة الغربية:

1-2-1-المقاصد و الإنجازية:

ارتبط مفهوم القصد عند سيرل بمصطلح آخر وهو " **القصدية(L'intentionalité)** " وتعني عنده " تلك الحالات التي تمتلك مضمونا قصديا يدل على شيء أو موضوع ، وتأتي هذه الحالات في شكل سيكولوجي معيَّن، وقصديَّة العقل هي الأساس العميق الذي تشتق منه الصور الأخرى، من القصدية مثل قصدية اللغة أو الصورة أو الرموز..."[1].

ويُنمُّ هذا التعريف على مجموعة من المفاهيم نوجزها كالتالي[2]:

- مدى ارتباط الوعي الإنساني بظاهرة ما (موجودة أو خيالية).
- للقصدية حالات لها مضمون قصدي، قصدية الرغبة (أرغب أن تنجح) أو قصدية الأمل (آمل أن تنجح)أو قصدية الاعتقاد (أعتقد أنك نستنتج) بالإضافة إلى الحب، والكراهية ...
- قدرة العقل في توجيه ذاته نحو الأشياء في العالم الخارجي، وتمثيلها.
- القصد ليس إلا نوعا من تلك الحالات القصدية.

وفي سياق الحديث عن المعنى يقرُّ سيرل بأنَّ " المعنى صورة حقيقية من القصدية ولكنَّه ليس قصدية باطنية، وإنَّما قصدية مشتقة من القصدية الباطنية لمستعملي اللغة" [3].

---

[1]- نظرية جون سيرل في القصدية، ص119، نقلا عن المقاصد اللغوية ، مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، أحمد كروم، دار كنوز المعرفة، عمان-الأردن، ط1، 2015،ص20.

[2]- ينظر: كلاّ من : القصدية من الفلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وشن دلال:جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، جانفي 2010، ص3، و فلسفة العقل (دراسة في فلسفة سيرل)، ص196، تر: صلاح إسماعيل، دار قباء القاهرة مصر،2007.

[3]- فلسفة العقل، صلاح إسماعيل ، ص230، يقول سيرل:" إليك المفتاح لفهم المعنى، المعنى صورة من القصدية المشتقة،

لذلك نجده في موضوع آخر يبنى نظرية بالتوجه صوب الانجازية[1].

1-2-2-المقاصد و مجال التواصل:

لقد مهَّدت دراسة أوستن" و"سيرل" في نظرية الأفعال الكلامية (Acte parole) الطريق لظهور اتجاهات عديدة من بينها نظرية الحديث لبول غرايس، حيث أوضح " غرايس أنَّ فهم

الملفوظات وتأويلها أثناء عملية التخاطب، لا يعتمد دائما على دلالتها الطبيعية التواضعية"[2].

لأنَّ العملية تحكمها مجموعة من النوايا والمقاصد، تضاف إليها المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وتجعل عملية التواصل مستحيلة في ظلّ غياب هذه الشروط التمهيدية"[3].

و الدلالة نوعان[4]:

1-**الدلالة الطبيعية الوضعية:** وهي التي لا تحتاج الى تأويل كدلالة الدخان عن النَّار.

2-**الدلالة الطبيعيَّة غير الوضعية:** وهي الدلالة التي تشترك فيها تأويلات المخاطب ومقاصد المتكلم وظروف التخاطب (السياق و الأحوال).

والقصدية الأصلية أو الباطنية لتفكير المتكلم تنتقل إلى الكلمات والجمل والعلامات وهلم جرا، ينظر: فلسفة العقل، صلاح إسماعيل، ص230.

[1]- ينظر فلسفة العقل، صلاح إسماعيل، ص23.

[2]- المرجع السابق، ص99، وعملية التأويل مرهونة عنده بثلاثة عناصر: معنى الملفوظ، معنى السياق (اللساني و غير اللساني)، ومبدأ التعاون ويقوم على ثلاثة قواعد:

قاعدة الكمية/ قاعدة الكيفية /قاعدة الجهة و أضاف طه عبد الرحمن قاعدة أخرى استقرأها من التراث العربي الإسلامي (مبدأ الصدق) على أساس أخلاقي، وعند غرايس يكون الاستلزام الحواري بخرق إحدى القواعد، ومثال ذلك: إطالة الحديث أثناء الحوار، يستلزم عدة مقاصد، كالاستئناس مثلا.

و للتفصيل: ينظر: اللسان و الميزان أو التكاثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص 13وما بعدها.

والتداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص: 46-47.

التداولية (أصولها و اتجاهاتها) جواد ختام، ص: 96-114.

[3]- التداولية (أصولها و اتجاهاتها)، ص99.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص 99-100.

إنَّ البحث عن المقاصد أو المعنى عند "غرايس" يتأسَّس في إطار قواعد التفاعل الكلامي، أثناء التواصل[1]، معتمدا في ذلك على قدرة المتكلم واستراتيجياته، والتعبير عن قصده ونواياه، كما أنَّ المتلقي له من القدرة الذهنية والاستدلالية التي تخوّله مهمَّة فهم الغرض التبليغي وإنجاح التواصل أي أنَّ القصد:

- مربوط بشروط المواضعة والعرف الاجتماعي.
- مربوط بعناصر التواصل: كاستنتاجات المتلقي، والظروف المحيطة بالخطاب.

1-2-3-المقاصد و نظرية الملاءمة(Pertiance):

أدَّت محاولة غرايس في تأسيس قواعد التبليغ إلى قول كل من "سبربر" و"ولسن" بالاعتراف بجهوده ودوره في تأسيس هذه النظرية (الملاءمة) ويؤَّكد كلاًّ من سبربر وولسن أنَّ " التَّواصل ذو طابع قصديّ استدلاليّ، ويعترفان بأنَّ نظرية الملائمة في جوهرها ما هي إلَّا محاولة لتعميق الفهم بفكرة غرايس التي يقرَّ بأنَّها السمة المميزة للتواصل الإنساني تتمثل في التعبير عن النوايا والتعرف عليها، فالمتكلم تحرّكه نوايا و مقاصد يتوخَّى الوصول إليها، أما المخاطب فيطمح لإماطة اللثام عن هذه المقاصد من خلال جملة من السيرورات النَّصية والاستدلالات غير البرهانية"[2]

ويستفاد من هذا القول أنَّ نظرية الملائمة ذات بعدين :

1-بعد تداولي: يتمثَّل في الاستفادة من ظاهرة الاستلزام الحواري.

2-ذات بعد معرفي: يتمثل في الجهد[3] الذي يبذله المتلقي؛ انطلاقا من معرفته الموسوعيَّة، وهي معرفة مشتركة تتميَّز بكونها محيطا يجمعه السنن(ترميز

[1]- نفسه، ص105.

[2]-المرجع السابق، ص122.

[3]- ينظر: التداوليات المعرفية(تطبيقات على آيات من القرآن الكريم)، مولود هيد الله مزايط، مقال من مجلة تحليل الخطاب(البلاغة العربية أسئلة وتاريخ)، بني ملال- المغرب، العدد3 ، 2013، ص21-23.

اللغة)؛ إلَّا أنَّها تختلف لاختلاف التمثُّلات الذهنيَّة[1] لكلّ شخص حول الأشياء.

وتجري العملية كالتالي:

1-يسعى المتكلّم لمساعدة المخاطب على إدراك مقاصده.

2-يتمُّ فهم المخاطب للملفوظات وتأويلها عبر سلسلة من السيرورات الذهنية، قصد كشف نوايا المتكلم من جهة، وتمثُّل الكون من جهة أخرى.

إلَّا ما ننوّه عليه في هذا المقام، أنَّ نظرية الملاءمة ليست خرقا للقواعد التداولية، بل هي مجموع افتراضات يستحضرها المتلقي" ضمن سياق كلامي محدَّد، من أجل الحصول على تأويل ملائم للملفوظ"[2] وقد أطلق عليه الباحثان مصطلح" الاستلزامات السياقيَّة Implications contextuelles".

1-2-4-المقاصد والحجاج:

1-2-4-1-الحجاج تفاعل:

إذا كانت التداولية تسعى إلى ربط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي فإنَّ أجلَّ مظاهر هذا الارتباط البحث في علاقات التفاعل بين الذوات في الخطاب.

مثلما يقول "بنفنست" أنَّ المتلفظ فور إعلانه عن خطابه فهو يعلن عن وضع الخطاب والمتلقي[3] الذي سيوّجه له هذا الخطاب؛ ويصير الحجاج من هذا المنظور" كل منطوق به موَّجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّق الاعتراض عليها"[4].

---

[1]- عندما نتواصل نغيّر،(مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، عبد السلام عشير، افريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب،2004، ص55-56.

[2]- التداولية أصولها واتجاهاتها، ص125-126، ومع ذلك تظل هذه المسألة من الإشكالات المطروحة، في كون المتلقي ينسب تمثُّله الذهني على مقاصد النَّص.ينظر: التداوليَّة اليوم علم جديد للتواصل، آن ربول وجاك موشلر، ترجمة سيف الدين عقوس و محمد الشيباني ، دار الطليعة ، بيروت-لبنان، ط1 ، 2003، ص206.

[3] -Problème de linguistique générale .Benveniste Emil.Tom1 ;Edition Gallimard Paris1974.p80

[4]- الميزان واللسان، ص226.

من هنا تبيَّن أنَّ المقصد التداولي المهمَّ هو دراسة هذا التفاعل الذي يعدُّ" تبادلا للتأثير أو تناقلا للتعبير أو ترابطا وظيفيًّا أو تجاوبًا وجدانيًّا، تبدو لنا موضوعة على قانونه ومفهومة على مقتضاه، أو قل أنَّ الحجاج أصل كلّ تفاعل"[1].

وهذا التفاعل هو المحور الأساس في كلّ عملية تخاطبية[2]، وهو لا يسير دوما وفقا لقوانين مرسومة، نظرا لاختلاف المعتقدات، واختلاف الخلفيات المعرفية للمتخاطبين، ومنه يكون المعترض يطلب دليلا على دعوى المتكلم.

1-2-4-2-النموذج الاتصالي للحجة:

فإذا كان الحجاج في مدلوله اللساني العربي هو القصد، صحَّ معه ضرورة البحث في الحكمة وراء الأقوال، وهذا ما اصطلح عليه طه عبد الرحمن ب" **الاعتبار**" وصيغته:

لا تقبل قولًا حتى تظفرَ بحكمته فتزداد عقلًا

ومتى كان مقصد الحجاج التفاعل و تحقيق التواصل وبلوغ المقاصد صار حجة حيَّة" إذ ليس الغرض من الحجَّة الحيَّة الوصول إلى الحقيقة الوصفيَّة، لأنَّ البرهان النظري أولى بالقيام بهذه الوظيفة، وإنَّما الغرض منها أساسا هو الوصول إلى الحقيقة المعيارية، والمراد بالحقيقة الوصفية(الأسباب الظاهرة للأشياء)، وبالحقيقة المعيارية(المقاصد الخفيَّة للأشياء أو قل الحكم)..."[3].

[1]- نفسه، ص229، ولو تتبعنا النموذج الحجاجي في التراث لوجدناه متسع المباحث، دقيق المنافذ، ويمكن أن نجمله في: الحجة العقلية، والحجة النقلية، والحجة الاعتبارية ؛ وهذه الأخيرة سنركز عليها في مباحث الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

[2]- تحليل الخطاب(مقاربة تداولية معرفية)، حسان الباهي، مقال من مجلة البلاغة وتحليل الخطاب(البلاغة بين الحجاج والتأويل)،بني ملال المغرب، عدد، 2014،ص24-25.

[3]- اللسان والميزان، ص268.

ومادامت الحجة من هذا المنظور التفاعلي الحي، الذي يكون أصلا في الخطاب الطبيعي صحَّ معه أنَّها تمتاز بالخصائص الآتية[1]:

1- أصل الاستدلال فيها يكون مجازا: ومنه ستتخذ المرونة في للخطاب الطبيعي الداعي إلى التكيف المستمر حسب ظروف الخطاب ومقتضياته.

2- ويتمظهر في أشكال خطابية أهمها الشعر[2] ويليها الأصناف الأخرى كالنثر والسرديات، إذ يغلب على الشعر استعمال المجاز كالصور المجازية....

3- الحجة بجانب الأخلاق: ويستند إلى جانب الفعل والخُلُق؛ ونعني بالثاني اعتبار الغير في قصد المتكلم، بالإضافة إلى الأخذ بالحكمة من القول، والحكمة هي توسيع عقلاني يتجلى في:

- الانتهاض للعمل(قيمة).
- اقتران القول بالمقاصد: وهي الغايات والأسرار وراء الأشياء والحقائق، وعليه يتَّسع دور العقل إلى التعليل الوصفي والتعليل السَّببيّ[3] ثمَّ الربط بين التعليل السَّببيّ والتعليل الحكمي؛ فيكون الثاني علَّة للأول.

---

[1]- للوقوف على مجمل خصائص النموذج الاتصالي للحجة عند طه عبد الرحمن ينظر كتابه اللسان والميزان: ص254-272.

[2]- توجَّه ميدان الحجاج مع ببرلمان وتيتيكا في أعمالهم -" Chaim Perlman et Lucie-Olbrechts-Tytica :traité de l'argumentation-la nouvelle rhétorique 1992. " -إلى دراسة البلاغة الأرسطية واصطلحا عليها البلاغة الجديدة، وجوهر النظرية: " أنَّ الحجاج هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"، ينظر شرحا لهذه المسالة الكتاب السابق: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، فريق البحث في البلاغة والحجاج، المطبعة الرسمية الجمهورية التونسية، منوبة، ص350.

[3]- ينظر: أهم نظريات الحجاج، ص332-333، وينظر بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت-لبنان، ط1، 2013،ص94.

وتعدُّ مجمل هذه الحقائق والقيم والمسلمات أطرا ومنطلقا[1] في يد المحاجّ يستنجد بها في خطابه حتى يبلغ مقاصده:

- الحقائق(les verities): " مدارها على نظريات علميَّة أو مفاهيم فلسفية، أو دينيَّة(حقائق مفارقة للتجربة)".

- القيم(les valeurs): والتي يجري عليها مدار الحجاج، كقيمة العدل، أو المساواة، أو العمل، وقد تكون قيمة معنوية كهذه الأخيرة، أو قيمة ماديَّة.

وقد تبلغ منحى تصاعديًّا، تكون فيه هذه القيم بشكل تدرجي في الحجاج تدعى" **الهرميات(les hiérarchies)**" وهي من المسلَّمات التي يقبل بها الجمهور، وقد تختص بعرف معيّن أو اتجاه ما، أو مذهبا، وهذه الأخيرة أصعبها لأنَّها تحتاج إلى أدلَّة وحججا أقوى تدعمها.

1-2-4-3-الحجاج واللغة:

ومادام الحجاج أصل في الخطاب، كانت جهود كلٌّ من **ديكرو** و**أنسكونبر**[2] تروم إلى إثبات الحجاج في البنية النسقية للغة، فتكون الحجج خاضعة للقانون الداخلي للغة، بما فيها من روابط معجمية وصيغ لغوية(إذن، حتى، بل،...).

ولعلَّ أهمّ حقل في نظريتهما هو" **المواضع(Lieux argumentatifs/Les topiques) والسلّم الحجاجي**"، و**الموضع** بالمفهوم الحجاجي الحديث هو" إثبات الحجاج ضمن نظام اللغة ونسقها عبر الترابط والتعالق الذي يحدث بين الوحدات اللغوية التي تتألَّف

[1]- ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبرلمان وتيتيكا، عبد الله صولة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص309 وما بعدها، ونتيجة لإنصاتنا للوصايا تقرَّر لدينا أنَّها تأخذ هذه المنطلقات حتى تبلغ المقاصد و تذعن الجمهور الصوفي وغير الصوفي، إلّا أنَّنا وقعنا على منطق حجاجي خاص للوصايا وهذا ما سنبيّنه في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

[2]- كتابهما" J.C.Anscombre et O. Ducrot .Argumantativitté et informativité dans De la métaphysique à la rhétorique ".

منها اللغة، أي نظرة محايثة للنسق اللغوي تبعد كلَّ ما يتَّصل" بمعطيات الواقع الخارجي وقصرها على دراسة الخطاب ولا شيء غير الخطاب..."[1].

وتكون الحجج مرتبطة ومرتبة ترتيبا ضروريا، وتتحدَّد وظيفة الموضع[2] بكونه النقلة التي تدفع الاستنباط من المقدمات إلى النتائج:

اشتر هذا الكتاب، فإنَّه مفيد جدًّا، كما أنَّ ثمنه مناسب أيضا.

- حجة1: فائدة الكتاب.
- حجة2: ثمنه مناسب.
- النتيجة: هي شراؤه.

فالموضع هو الذي يحدث هذه النقلة من الحجج إلى النتائج، وليس طبيعة الوقائع نفسها.

إلَّا أنَّ هذا الحقل واجه مشاكل منهجية ونظرية، تمخَّض عنه إجراءات تعديلية تهدف إلى إرجاع السياق وطروف المقام في ربط الحجج وترتيبها، وملخَّص هذه الإشكالية:

- قطع هذه الحجج عن الوقائع والتجربة.
- الاعتماد على عوامل وروابط النظام اللغوي.
- تَرتُّب الحجج بحسب القوَّة، وليس ارتباطا بالواقع.

وعلى كلّ فإنَّ التعديل أدخل من منطق" **نظريَّة تعدُّد الاصوات**"[1]، ومنه سيرتبط الموضع بوقائع وتجارب ومقصدية سابقة لهذا النسق اللغوي الحامل للحجج، وهذا بناءً على ما تتميَّز به اللغة الطبيعية.

[1]– مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكونبروديكرو، رشيد الراضي، مقال من مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر–ديسمبر، 2011، ص223. وينظر التداولية أصولها واتجاهاتها، ص157–158.وبخصوص السلم الحجاجي ينظر: الميزان واللسان، ص273–278 وقد أشار طه عبد الرحمن، إلى الترتيب السلمي عن ديكرو وانسكونبر أنَّه يقوم على صحة منطقية القول وليس على المضمون الأخلاقي.

[2]– للوقوف أكثر حول تفاصيل هذه المسألة وللفائدة، ينظر المقالة السابقة ص205–228.

فالمتكلم يقصد المتلقي بالحجة، كما قد تتعدَّد الذوات في الخطاب الواحد، وقد تتناوب هذه الذوات في أداء الأدوار والوظائف ضمن الخطاب، وتتوَّج بالصفة التدرجيَّة السلَّميَّة التي تربط الوقائع بالمسببات، وترتبط المسببات بالحكمة، والحكمة هي المقصد من أيّ قول أو حجة.

وفيما يلي مخطط عام توضيحي لما ذكرناه سابقا حول الحجة الحية:

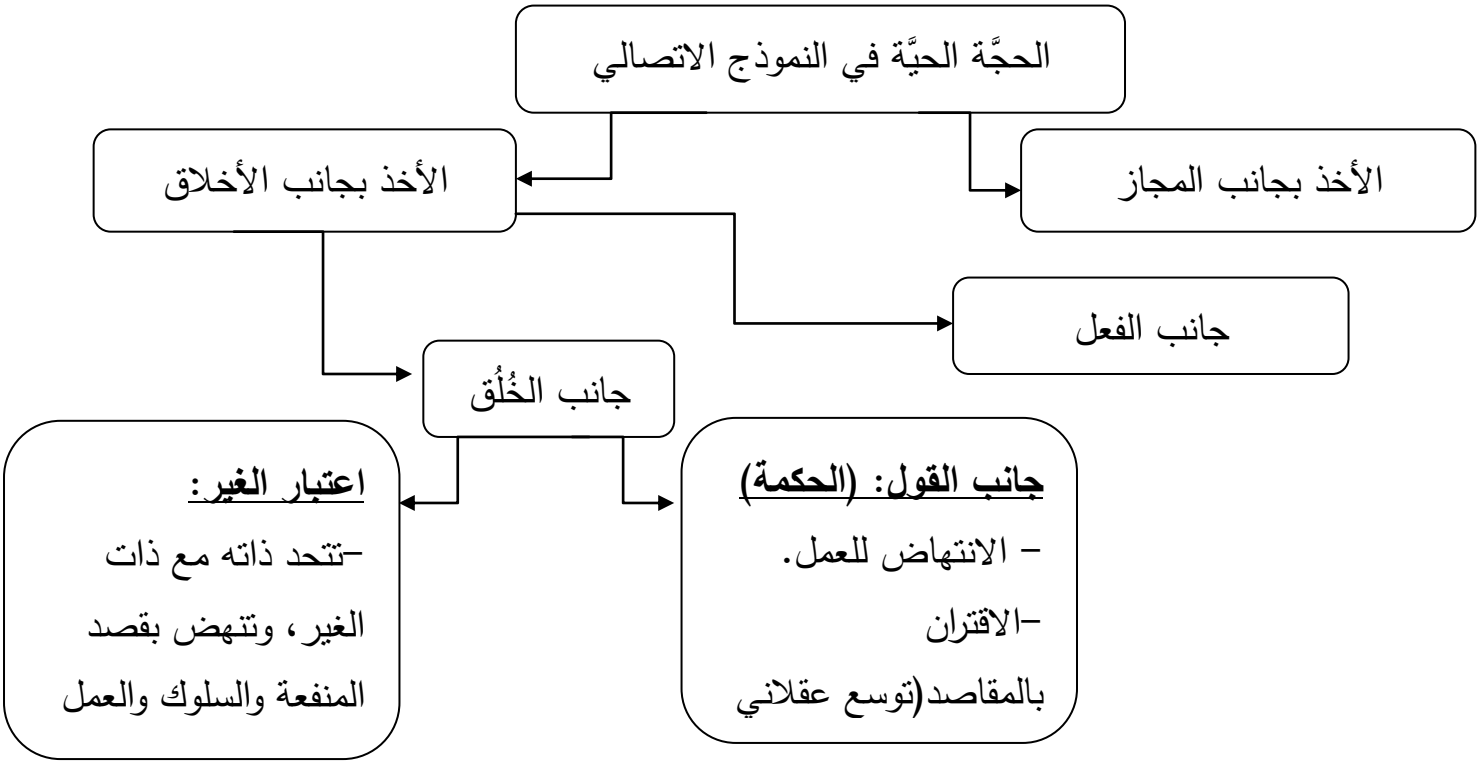

[1]– ميّز طه عبد الرحمن في نماذج الحجج في التواصل الإنساني،بين هذه الذوات؛ فقد تكون ذاتا موجهة في الفعل الكلامي وتتوقف على إخبار القصد من الحجة وقد لا تتعدَّى قصد المتلقي، أما الذات في نموذج الحجة الحية تبلغ درجة التقويم، والتقويم معناه بلوغ قصد المتلقي لأنَّه يجرّد من نفسه ذاتا ثانية تقوم مقام المتلقي المعترض.

الفصل الأول:

قصد التواصل

المبحث الأول: المقاصد الافتتاحية(المقاصد الإجمالية)

أولا: العنوان

ثانيا: المقدمة الشعرية

ثالثا: القصد ومستويات التواصل

المبحث الثاني: قصد الفهم والإفهام(المقاصد البيانية التفصيلية)

أولا: مفهوم اللغة عند ابن عربي

ثانيا: النَّص عند ابن عربي

ثالثا: الفهم والإفهام والمقاصد الاعتبارية

رابعا: آلية المعرفة الرَّبانيَّة والتأويل

تمهيد:

1-التعريف بالمدونة:

لمَّا أنهى ابن عربي[1] كتابه الفتوحات المكية الذي ابتدأه في مكة، قرابة الثلاثين سنة، ختم كتابة في دمشق قبل وفاته بعامين[2]، وكانت خاتمة الموسوعة العرفانيَّة وصايا اختلف الكثير في جعل ابن عربي يعدل عن اعتقاده من مسألة الباطن إلى الظاهر، وهو الاعتقاد الذي يبرّر مجيئ الوصايا على شاكلة العلم الظاهري"وصايا نبوية، وأقوال للصحابة والحكماء، مبناها على السلوك وتحقيق العلم الشرعي"[3].

إلَّا أنَّنا ننطلق دوما في أحكامنا من النظرة الإيديولوجية والقراءة النقدية الفكرية، دون أن نلقي بالًا للنُّصوص واشتغالها في نطاق أوسع يحدّد مقصدية الكاتب، ومن ثمَّ ترجمة هذه الخطابات إلى قراءة لا تأخذ بالحكم الموضوعي خارج النص، وإنَّما تؤسس به هذه المعطيات لاستشراف المقاصد.

---

[1]- **ابن عربي:** والده علي بن محمد، عربي النسب من سلالة حاتم الطائي، عرف بالزهد والورع والفقه، ولد ابن عربي بالأندلس بأسبانيا(560هـ-638هـ)، حفظ القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي على يد أبي بكر بن خلف فقيه أشبيلية، وكان عمره آنذاك ثمان سنوات، حصَّل العلوم وهو ابن العشرين، واتجه إلى الخلوة والتصوف عام 580هـ-1184م، قام برحلات عديدة في المغرب(تونس، بجاية، فاس...)، وكان تأليفه كتاب الفتوحات المكية بمكة الموسوعة العرفانية .... ويرجع سبب اتباعه للطريقة الصوفية لرؤية حصلت له وهو صغير، كان آخر مقر له بمدينة دمشق ما بين فترة(597هـ-620هـ)، وقد لقي تكريما وحفاوة من الملوك آنذاك" كيكاوس، الملك الظاهر"، له مصنفات عديدة زهاء مائتين وتسعة وثمانين بين كتاب ورسالة، ارتحل عن الدنيا عام 638هـ، تاركا كتاب الفتوحات المكية مجرة كونية من العلوم العرفانية. ينظر هذا التعريف: ابن عربي ومولد لغة جديدة، ص 13-15، وينظر ايضا: هكذا تكلم ابن عربي، نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص29-33.

[2]- القصدية التخاطبية في وصايا ابن عربي، آمنة بلعلى، مقال، جامعة مولود معمري تيزي وزو، قسم الأدب العربي، ص12، وينظر المدونة الأصلية في: الفتوحات المكية،ابن عربي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص234، وللإشارة فإنَّ الطبعة التي اعتمدناها تتألف من تسعة أجزاء.

[3]- بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، عبد الباقي مفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2011، ص8.

وقد كان أهم ملمح وقعنا عليه أثناء مباشرتنا البحث هو تموضع الوصايا في نسقين خطابين مُهمَّين؛ نسق إجمالي عام تجسده مقدمة شعرية، ونسق آخر يعدُّ خطابا تفصيليًّا يشكّل أغلب الوصايا،وهو ما يثير عدّة أسئلة ينشد البحث الإجابة عنها.

وفي مجملها–الوصايا– تكون خاتمة كتاب الفتوحات المكيَّة الباب الموفي360 تحت عنوان" في وصيَّة حكميَّة ينتفع بها المريد السالك والواصل ومن وقف عليها إن شاء الله تعالى".

2–مفهوم الوصيَّة:

2–1–التعريف اللغوي: جاء في المقاييس في مادة (وصَّى) أنَّ "الواو والصاد والحرف المعتلَّ أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيء: وصلته ويقال وطئنا أرضا واصيه أي نبتها متَّصل قد امتلأ منه..."[1]وقياسا لهذا المدخل المعجمي يتضح أن الوصيَّة والوصايا تصبُّ في معنى واحد تقريبا، وهو الاتّصال والوصل والاستمرار.

2–2–أما في الاصطلاح: فهي تأخذ بعدا تداوليا في الزمن فالمعنى الاستعمالي لمصطلح الوصيَّة" هو إيصال الخبرة ونقل التجربة ومد جسور المعرفة التي يتناقلها البشر بغية تحقيق الخير لهم بشكل عام أيّا كان ميدان تلك الوصيَّة.[2]

وميدانها الأول هو القرآن الكريم الذي جاء ملخصا لجميع الشرائع السماوية بدءا من سيدنا آدم عليه السلام إلى وقت نزول الوحي على سيّدنا محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم،وقد تأتي بأنماط خطابية وأشكال نصيَّة متعددة تعكس الوظيفة المنوطة لها كحكمة الشعر، وموعظة الخطب، وواقعية الأمثال وأعلاها العروة الوثقى وهو القرآن الكريم، والحبل المتين جامع الخير، والسعادة الأبدية في أعلى تجليها ودقة التخطيط في كل مقامات وأحوال الناس.

[1]–مقاييس اللغة ، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ج6 ،مادة(وَصَّى).

[2]–الوصايا في الأدب الأندلسي، حذيفة عبد الله، الجامعة الأردنية، 2007،ص8.

وقد أتى ابن عربي على هؤلاء جميعا، محققا المدلول اللغوي والقصد الاصطلاحي معا، ذلك أنَّ الوصايا مجرة كونية وشجرة متصلة النبات تخاطب جميع العقول والذهنيات، بدءا من المريد السالك والواصل إلى أي متلق يقف على مقاصدها، لكنها في ثوب روحي صوفي يبني بالدرجة الأولى الروح الإنسانية ليشغل المدارك التي تود الوصول إلى الله، محققة نصيبها الدنيوي والأخروي .

لكن هذه الوصايا جاءت في نسقين خطابيين: نسق إجمالي ونسق بياني تفصيلي، وهو ما تسعى التداولية لبلوغه، الكشف عن خصائص اللغات الطبيعية بما تحمله من إضمار يسبق في بنائها المدركات الذهنية القصدية والأحوال الشعورية الداخلية والقدرات الخيالية، ويليها التعبير عن هذه الأحوال بحسب ما يتطلبه مقام الخطاب والاستعمال.[1]

إنَّ الأفراد" في تفاعلهم بواسطة سلوكاتهم ومواقفهم ورغباتهم يبنون علاقات أفقية مع بني جنسهم وعمودية مع كائنات الطبيعة. وهذا التفاعل هو ما يطلق عليه التواصل."[2]

ويشكل التواصل اللساني أعلى ضروب هذا التفاعل، باعتباره يحقق العلاقتين معا، فاللسان هو الوسيط بين الوجود والذهن، لأنّه تلطيف لكثافة[3] الموجودات في الواقع، وفي الآن نفسه تكثيف لتجرّد الذهن.

ولا يستقيم هذا التواصل إلاّ بوجود العملية التخاطبية، تحدّد استعمالات اللغة ليس فقط في حدود نقل المعلومات والأخبار بين المتخاطبين، فقد تكون معان أو اقتراحات أو اعتقادات أو شعورا...وهذا لا تتكلَّف به المعرفة المشتركة الخاصة بالوضع اللغوي أو السنن، بل تروم إلى تحريك قدرات الذهن، لأنّ اللغة ليست مجرد علامات لغوية بقدر ما تحمل ملامح هذه الآثار التي ذكرناها من قيم وتجارب وخبرات.

---

[1]–المقاصد اللغوية، ص25.

[2]–عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير، ص38.

[3]–اللسان والميزان، ص65.

ذلك أنّ المتكلم يقصد التوجه إلى المخاطب، ويبقى على المخاطب المتلقي تحريك قدراته الاستنتاجية والإدراكية،ومعرفته بقرائن الأحوال أو السياقات الممكنة التي يستدل بها لحصول الملاءمة بين ماقصد المتكلم وما استنتجه من مضامين القول. لذلك فإنَّ الهدف في هذه العملية هو تغيير سلوك ما، أو إضافة طريقة جديدة في التفكير تجعل من الممكن أن يسلك المتلقي الطريقة نفسها.

فإذا كانت أهم وظيفة للغة هي التواصل بالمنظور العام، فإنَّها لدى المتصوفة لغة البيان والإشارة و لغة الفهم والإفهام، فهي تحقق قمة الخطابية ضمن كل المقامات التخاطبية، بل وتزيد على ذلك بأن تجعل المتلقي ينظر بأكثر من زاوية ويقرأ بكل العقول؛ الحسية والذوقية والروحية الأدبية الإبداعية.

المبحث الأول: المقاصد الافتتاحية(المقاصد الإجمالية)

يستهلُّ ابن عربي وصاياه بعنوان ومقدمة شعرية، هي بمثابة التوقيع والمفتاح لدخول مقاصد الوصايا والمنطق الصوفي والروحي المساهم في بنائها وبيانها، لذلك فإنّ هذا المفتاح" يصير توقيعا للنص، ومؤشرا على احتمالات متعددة"[1]، وتكشف هذه الافتتاحية على تعلق العنوان بمضامين الوصايا، والإستراتيجية التي ينوي ابن عربي أنْ ينحوها لتبليغ مقاصده إلى المتلقي، وعليه فإنَّ ما يدعو الاهتمام عند أول تلق للعنوان هو كثافته القولية والدلالية ومؤشراته المقصدية، لأنَّ العنوان هو"مجموع العلامات اللسانية التي تعين وتدلّ على المضمون الشامل وتجذب جمهورا معينا"[2].

[1]–تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، آمنة بلعلى، 2009، ص 271.

[2]–نفسه، ص271.

أولا: العنوان[1]:

يعلن ابن عربي مباشرة عن أنواع المتلقين؛ إذ يحيل العنوان على ثلاثة محاور رئيسة يمكن أن نقول أنها ليست اعتباطية بقدر ماهي إشارية تنقل تجربة أهل التصوف"ومتى ثبت أن الإشارة يدخل عليها العمل من كل جانب وأنّ صحَّة دلالتها تتوقف على طريق التواصل الحيّ،تبين أن طبيعة التعبير الإشارية طبيعة معنوية قصدية، فالعمل لايكون عملا إلاّ بالقصد الذي يقترب به، والتواتر لا يكون تواترا إلاّ بالحفاظ على قصد النموذج الأصلي..."[2]

وفيما يلي بيان دور الإشارة التواصلي ومقاصد العمل الحي[3] :

العنوان:
الباب الأخير من الفتوحات المكية

وصية حكمية

1-الوصية هي طريق الوصول إلى الله

2-مفتاحه وقصده الأول التواصل والايصال

3-نموذج ديني وقرآني

4-الحكمة مستوى عملي وعقلي تخطيطي لبلوغ الهدف ومستوى عرفاني سلوكي روحي

ينتفع بها للمريد السالك والواصل

1-المريد هو تحرير الإرادة من النفس وسلطانها للوصول إلى الحق.

2- تأهيل للتلقي المتلقي النموذجي الصوفي.

3-السالك الذي يحاول التقرب إلى الله بالنوافل والفرائض.

4-تدرج خطابي موجه.

ومن وقف عليها إن شاء الله تعالى

1-متلقي غير محدد عامة الناس.

2-المتلقي من أهل الظاهر.

[1]-تطلب العودة إلى العنوان الأصلي لأنه أبين في كشف المقاصد، ينظر: الفتوحات المكية،ابن عربي، تحقيق أحمد شمس الدين، ص234، وقد وجدنا اختلافا في بعض الكلمات بين هذه الطبعة والطبعة التي اعتمدناها ينظر: الوصايا، ص13-14.

[2]-الفلسفة الأخلاقية المعاصرة في مشروع طه عبد الرحمان، نعيمة إدريس، المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة، ص19.

[3]-استعنا بحمد الله لشرح هذه المصطلحات على المعجم الصوفي، لسعاد الحكيم، ص585.

ومجمل هذه المصطلحات إذا ثبت عليها أي متلق وقف على المقاصد التواصلية الآتية :

1-أنَّها توحي بمضامين، فهي تتعلق بالخطاب والقارئ والمقام التواصلي أكثر مما تتعلق بالشكل.

2-رغم إشارية مصطلحات العنوان وتجاوزها الدلالة المعجمية الوضعية، إلا أنَّها تقيم مبدءا استزاديا تدعو من خلاله القارئ الواقف لإدراكها، وتوسيع زوايا الرؤية، واللجوء للمعرفة الصوفية.

3-هذه العناوين تقيم احتمالية التأويل وتغري القارئ، إذ أنَّها مؤشر للتأويل العرفاني كذلك.

4-التدرج في أنواع المتلقين، هو تدرج في الخطاب الموجّه، وإدراك للإستراتيجيات المبلّغة للمقاصد.

5-تحقق قمة التداول، باعتبارها حكمة تخطيطية وإستراتيجية مثلى في التعبير عن القصد ضمن الوصايا التي سيأتي على ذكرها؛ والرغبة في التواصل بين الموصي والموصي إليه.[1]

ثانيا: المقدمة الشعرية: المقاصد الإجمالية(هويّة الوصية وتوجُّه ربانيّ مقصديّ)

يظفر المتلقي من القراءة الأولى لهذه الوصيَّة بعدة مؤشرات شكلية للنص تعدّ أولى عتبات التلقي:

1-أنَّها جاءت في قالب شعري[2]، مكثفة الدلالة الإشارية، تبدأ من الإظهار إلى الإضمار والإجمال.

2-يتطلب الفهم الموافق الاعتماد على السياق التداولي والمعرفي؛ نقصد بالأول بيان الدور التداولي لعبارات القصيدة ومستويات الظهور والإضمار، وطبقات القصود القابعة خلفها؛

[1]- القصدية التخاطبية في وصايا ابن عربي، آمنة بلعلى، ص4.

[2]- والشعر يجسّد طريقة ابن عربي في إنشاء الخطاب في كتابه الفتوحات المكية، فقد كان لهذا الأخير سلطة تطبع المتصوف السالك النموذجي، أما هذه الوصايا بكونها تحتل الجزء الأخير من الكتاب، فقد أراد ابن عربي أن تكون حكمة ينتفع بها كلّ من وقف على معانيها دون استثناء؛ لذلك عدَّت من أسلوب العبارة وليست من أسلوب الإشارة؛ فتكون العبارة مقصود لمقصد هو المعنى الباطني والإشاري الذي يودُّ ابن عربي أن يحيل المتلقي إليه.

أما الثاني فيمكن القول أنَّه تفعيل دور المتلقي باعتباره ذاتا مؤولة لا تكتفي بالمعنى الحرفي المعجمي لكنها تستحضر قدراتها الذهنية.[1]

ولا يمكن بحال الوقوف على المضامين القولية والمقاصد إلاّ بتأويلها، لأنها فيما نعتقد بداية وحلقة وصل لجميع الوصايا، واستشرافا للمقاصد الموالية للوصايا الأخرى، حتى وإن لم يقف المتلقي عليها جميعها، وهذه قمة الإبداع اللغوي الذي يحدد الإستراتيجية التي سيسير وفقها الخطاب ويدعمه الحضور التداولي لإنجازية الخطاب الموجَّه من جهة، ومن جهة أخرى تجسيد فهم مناسب، يقيم المتلقي مشاركة قصدية المرسل ويبني من النص التأويل المناسب له.

وهذا يبين بوضوح مرة أخرى بأنَّ انسجام الخطاب ليس أمرا معطى بل القارئ هو الذي يحكم على النص بأنه منسجم من خلال فهمه وبناء تأويل منسجم.[2]

1-**سيكشف السياق التداولي "Contexte Pragmatique"** عن طبقات المعنى في القصيدة ضمن مقتضيات الأحوال للتجربة الصوفية، مادامت الحالات القصدية لا تظهر في استعمالات الخطاب الموجَّه، ويكمن عبره أن نقسم القصيدة إلى مقاطع بحسب المقامات إلى:

-مقام الذكْر والمقصد الرئيس، وسيتفرع عنه: مقام العروج الروحي والارتقاء النفسي، مقام القرب والاتصَال، مقام التوريث للمعرفة الصوفِية.

[1]-ينظر: المحاورة (مقاربة تداولية)، حسن بدوح، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2012، ص 126-130. وينظر: التداولية أصولها واتجاهاتها ص127-128. وينظر: تحليل الخطاب، مقاربة تداولية/ معرفية، حسان الباهي، ص 25-26.

[2]-انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، فتيحة بوسنة ،مقال، دط، د ت، ص 317، أمَّا رسالتها فهي موسومة ب" انسجام الخطاب في مقامات السيوطي(مقاربة تداولية)، مخبر تحليل الخطاب الأمل، 2012.

2- أمَّا **السياق المعرفي" Contexte cognitif "** فإنَّه سيحفّز تفاعل المتلقي بأن ينصب نفسه[1]:

-ذاتا مؤوّلة: على معرفة عميقة بالمصطلحات الصوفية، وإشاراتها، ودلالة كل ذلك في مؤلفات الشيخ ابن عربي خاصَّة.

-ذاتا تتمتع بالكفاءة الروحية: وتتلخص في الاستعداد الفطري لإدراك المفاهيم الصوفية، بالإضافة إلى إخلاص القصد والصدق في تلقي نصوصه.

- ذاتا تتمتع بالكفاءة التواصلية **Compétence de communication** :وذلك بحسب قواعد التواصل، وقواعد التبليغ والتخاطب، في مقدمتها مبدأ التعاون ومبدأ الإفادة.

إنَّ المستوى الأول من التداول في هذه المقدمة الشعرية" يتحقق بما أضمر في المقدمة من احتمالات في ضوء التفسيرات المختلفة بعده الاتكاء على العقدة الضابطة"[2]،وهذه العقدة لا يمكن بحال أن تتكاثر بالتأويل إلا بردّها إلى محور رئيس يجمع كافة خطابات الوصايا ويمسك بخيطها وهو سبيل الله الأقوم في الهداية والعروة الوثقى، فلا مجال للتردد عند إثبات مصدر الوصايا وهو الكتاب والسنَّة:

وَصَّى الإلـهُ وَأَوْصَـتْ رُسْـلُهُ فَلِذَا كَانَ التَّأَسِي بِهِم مِنْ أَفْضَلِ العَمَلِ

3-المقصد الرئيس :

لابدَّ وأن المتصوفة في دائرة مذهبهم لم يكن همّهم إلا تحقيق الوصول إلى الله تعالى، بتحقيق مقام الإحسان في الدين (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[3].

---

[1]-ينظر بحوث حول مفاهيم وكتب الشيخ محي الدين بن عربي، ص54-46.

[2]-مستويات الإضمار القولي في المقدمة الطللية معلقة زهير بن أبي سلمى مقاربة تداولية، عواد كاظم وميسون مرازيق، المؤتمر العلمي الدولي التاسع، كلية التربية، جامعة واسط، جامعة ذي قار وجامعة طيبة، ص42.

[3]- فتح الباري(بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اماعيل البخاري)، ابن حجر العسقلاني، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر-القاهرة، ج1، ط2، 2012 ص167،والحديث في صحيح مسلم(36، 37)،وفي سنن أبي داود(4139)، وفي سنن ابن ماجه(4076، 63)، وورد في عدة مصنفات لا يسع المقام لذكرها، تتحدَّد الرؤية بحسب المقامات والأحوال، وهذا المنطق أخذ به المتصوفة؛ فصار الخيال والإمكان السبيل لتحقيق هذا المقصد.

وهذا بالضرورة يتوقف على قدرة المتلقي للوقوف على فهم المقاصد من الأحوال، بكونها توجها داخليا ووعيا ذاتيا" الذي يقتضي في بعض الأحيان الحاجة، أو الرغبة، أو الإرادة وهي من الأمور المهمة في تفعيل السلوك اللغوي وتحديد توجه النفس والمعرفة الاجتماعية"[1].

ولأنَّ التفاعل لا يقام بالنظرة الموضوعية للأشياء ككلّ كما نبَّه طه عبد الرحمن[2]، فالموضوعية في فلسفتها تبعد الذات القارئة وتفصلها عن الموضوع وهو الخطاب، فصحَّ أنَّ المتصوفة يتوجهون بفكر اعتباري مقاصديّ، هدفه الظفر بحكمة الظواهر والأسرار واللطائف وراءها، فيحقق:

- مبدأ الصواب:إنَّ التجربة الروحية الحيَّة للمتصوف، توصله إلى الهدف والغاية مباشرة.
- مبدأ الفائدة: لا يميل مع الأهواء المادية.
- لا يقع في التأويلات البعيدة، التي تنافي مقصد المتكلم. فهو دوما يسير تحت السلطة الإلهية العليا، ويتوجه دوما إليها.

يمكن أن نستنتج أنَّ هذا التوجه توجه داخليّ، ينعكس على استعمال الخطاب، ويصطبغ بقصد إلهيّ، فتكون الوصايا كلها من الله تعالى، وهذا ما دعا ابن عربي للاختيار التداولي لصيغة الفعل(**وصىَّ**) المسند إلى الماضي الدّال على الثبوت، في قوله:(**وصىَّ الإله**)، وللإشارة نضيف أنَّ الفعل (وصَّى) في القرآن لم يستعمل إلا في الأمور الدينية والمعنوية.

وتكون عمليات التلقي في عمومها لا تقوم "على أسس النظر للقول من وجهة موضوعية بل يشكل التفاعل الذاتي للمتلقي مع النص والمتكلم دور في نجاح التواصل

[1]–مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، ص25. وينظر القصدية لجون سيرل، ترجمة صلاح اسماعيل ص221.

[2] –ينظر العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط2، 1997، ص152.

وتحقيق نوع الملاءمة الذي لا ينفلت عنه التأويل إلى تأويلات بعيدة عن قيد اللغة[1]" فيتحرر المتلقي من القراءة الحاجبة ويضيف المعرفة الاصطلاحية إلى معرفته المعجمية وهذه حقيقة اللغة الطبيعية في الاستعمال.

3-1-مسوّغات الشعر والتوجه الرَّبَّاني للمتصوفة:

هل الخطاب ذاتي لا يدلُّ على إشراك المتلقي؟

إنَّ هذا السؤال يروم لطرح الإشكالية الآتية: هل قصد ابن عربي الإجمال في هذه القصيدة؟ ثم كيف يتعامل المتلقي مع هذه المدركات ليحصّل الملاءمة في التأويل وبذل الجهد في القراءة؟

يذكر ابن عربي القصد من مجيء القصائد في مستهل كل باب من كتابه الفتوحات المكية قائلا"اعلم أيّدنا الله وإياك أنّ هذه القصيدة في كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منه إجمال ما يأتي مفصّلا في نثر الباب ، و الكلام عليه ، بل الشعر نفسه من جملة شرح ذلك الباب، فلا تكرّر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر فلينظر الشعر في شرح ذلك الباب...."[2] .

ولأنَّ الإجمال قد يختلف عمَّا هو معهود في البلاغة، فقد تعلق هنا بحالات شعورية داخلية مرتبطة بطرق تحصيل المعرفة الصوفية الروحية الربانية. أخذت أبعادا أخرى عند ابن عربي و صارت مرتبطة بتجربة الكشف(العلم والمعرفة[3]).

وعلى كل فإنَّ ابن عربي كان يقصد أيضا توليد لغة جديدة و"البحث عن لغة انتقلت من المعيار الاجتماعي وتفلّتت من التراكمات الثقافية والفكرية والأدبية، ومن هنا كان سعيه

---

[1]-ينظر الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية)، إدريس مقبول،عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، 2011، ص25.

وفي تداوليات القصد، إدريس مقبول، مقال من مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مكناس-المغرب، المجلد28(5)، 2014، ص1212.

[2]-بحوث حول ابن عربي، ص41.

[3]-ينظر: المعجم الصوفي، سعاد الحكيم، حول مصطلح القلم الأعلى ص686.

إلى خلق تباعد وقطيعة مع لغة التواصل السائدة من أجل الإبانة عن جواهر تجربته وتبليغها إلى المتلقي في ثوب لغوي يليق بها"[1].

أمَّا فيما يخص المتلقي فإننا سنرى كيف أنَّ مستويات دلالة النص"تتكافأ مع مستويات القراء، وذلك يجعل النص عاما أو بعبارة أخرى إنّ النص "دال" بالنسبة للقارئ العادي"[2]؛ من جهة أخرى يبيّن ابن عربي وخدمة لهذا المقصد الرئيس أن يتمثَّل لهذا الاعتقاد وهو التوجه نحو الله تعالى. فيصير لهذا الأمر مقصدان: مقصد رئيس ومقصد ثانوي؛ أمَّا الأول فهو استدعاء للقارئ أن يتمثَّل الطريقة نفسها؛ في حين يعدُّ الأوَّل تمثيلا للاعتقاد يخصُّ ابن عربي فقط.

ولننظر للأبيات[3] الآتية:

3-2-المقطع الأول: المصدر الإلهي للوصيَّة:

وصَّى الإلَهُ وَأَوْصَتْ رُسْلُـــــــهُ فَلِذَا كَانَ التَّأَسِّي بِهِمْ مِنْ أَفْضَلِ العَمَلِ

لَوْلَا الوَصِيَّةُ كَانَ الخَلْقُ فِي عَمَـه وَبِالوَصِـيَّةِ دَامَ المُـلْكُ فِـي الـــــدُّوَلِ

فَاعْمَلْ بِهَا وَلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَـــــهَا إنَّ الَوصِـــيَّةَ حُـكْمُ اللهِ فِـــــي الأَزَلِ

ذَكَّرْتُ قَوْمًا بِمَا أَوْصَى الإلَهُ بِـــهِ وَلَيْسَ إِحْـدَاثُ أَمْرٍ فِي الوَصِـيَّة لِـــي

فَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ مَا قَـالُوهُ أَوْ شَـرَعُوا مِنَ السُّلُوكِ بِهِمْ فِي أَقْوَمِ السُّبُـــــــلِ

وتجاوزا لهذه الدلالة المباشرة وبعين القارئ المؤول، يسبح الكثير من المعاني المضمرة يسبق الوصول إليها المعرفة الروحية و كوامن أسرار اللغة وطاقاتها.

---

[1]-الكتابة والتجربة الصوفية (نموذج محي الدين بن عربي)، منصف عبد الحق، ص7. نقلا عن بنية الخطاب الشعري في الفتوحات المكية لابن عربي، قدور رحماني جامعة الجزائر، 2006.ص50.

[2]- المتلقي في الخطاب القرآني، حكيمة بوقرومة، دار المنتهى،الجزائر، ط1، 2015، ص98.

[3]-ينظر الوصية1 من كتاب الوصايا ص13.

وعليه يكون" تأويل النص من هذه الناحية والنفاذ إلى مستوياته المتعددة لا يفهمها إلا الإنسان الكامل الذي تحقق بباطن الوجود"[1]

وقد سوّل لابن عربي تحت المقاصد الإلهية أن يقوم بدور التذكير وقصد الإخبار **(وليس للوصيَّة إحداث أمر لي)**. كما لا يتوقف الأمر لمجرد الإخبار بل الاستفادة من هذه التجربة الروحية في نموذجها الإنجازي الذي يتعدَّى المنفعة العاجلة إلى المنفعة الآجلة[2] وهذه حقيقة القصد في العقل(النافع و تحقيق المصالح). إذ يرتبط العلم بالعمل وترتبط المعرفة العلمية بالمعرفة الإلهية[3]، وحينها يحصّل هذا النموذج اللغوي الدور العملي وتنسحب إليه صفة الدوام والاستمرار.

3-2-1الإحالة(Référance) وأصل المقاصد:

إنّ الإحالة إلى لفظ الجلالة الله في صيغة تكرارية تضطلع بفاعلية تداولية وتواصلية(وصى الإله،أوصى الإله، حكم الله،...) وكأنَّه انتقل من مقام التطويل إلى الأنس بالله وبذكره[4]، ولنترك ابن عربي يفصل لنا سرّ هذا الكلام؛ فمّما لا شك فيه أنّ هذه الإحالة تفيد وتعادل الضمير"هو" [5] وهو عندا بن عربي مخالف للطوائف التي تسند الشرف للفظ الجلالة بالإحالة(أنا،أنت نحن،...).

يقول ابن عربي"وجعلوها من ذكر الخصوص لأنها أعرف من الاسم الله عندهم في أصل الوضع، لأنها لا تدلّ إلاّ على العين خاصة المضمرة من غير اشتقاق، وإنَّما غلّبها

[1]-المتلقي في الخطاب القرآني، ص97.

[2]-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص22-23.

[3]-العمل الديني وتجديد العقل، ص150.

[4]- ذكر ابن عربي أنَّ الوصية هذه (وهي آخر باب من الفتوحات المكية التي ترتيبها في الكتاب 360) هي تحقيق لاسم التوحيد" لا إله إلَّا الله محمد رسول الله"، وهو بهذا الاعتراف يضع المتلقي في باب التحقق من مقامات العلم التي سيبني عليها خطابه في الوصايا؛ فلا ضير أن يقول أنَّ الوصية أصل إلهي بني عليه الكون، وتحقق العلم بها لزوم شيئين هما: العلم بها والعمل وفقها؛ وسنفصّل ذلك في الفصل الثاني إن شاء الله.

[5]- ينظر: الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النص القرآني، نائل محمد إسماعيل، مقال من مجلة جامعة الأزهر، سلسلة العلوم الإنسانية، المجلد 13، العدد1، ص1084.

أهل الله عى سائر المضمرات والكنايات لكونها ضمير غائب مطلق عن تعلق العلم بحقيقته، وقالوا: إن لفظة"هو" ترجع إلى هويته التي لا يعلمها إلا هو فاعتمدوا على ذلك..."[1].

فزاد شرف الضمير الذكر بلفظ الجلالة وهو عند ابن عربي أسمى وذكر الآية" ﴿ ﴾ [2].

يبيّن هذا بوضوح أصل الوصيَّة بعدِّها حكما إلهيا، وباعتبار تناقلها عبر الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ لذلك فإنَّ استشراف المقاصد لنصوص الوصايا ستحمله نماذج خطابية متعددة؛ حكمة، موعظة، نصيحة،... وستتعدد الذوات التي تنقلها بدءا بالرسل، مرورا إلى الأمثل فالأمثل؛ وهم النساك والوعاظ والمتصوفة...جاءت هذه الإشارة في أوّل وصيَّة لابن عربي.

3-2-2-مِنْ "هو"إلى "أنت":

انتقل الخطاب من لفظ الخطاب الغائب إلى لفظ الخطاب المخاطب (وصَّى الإله...فاعمل بها)، وهذا بدون أن يتوسط ابن عربي الخطاب بين الخطاب الإلهي والمتلقي، وهي إستراتيجية تضاميَّة تواصلية تداولية تعكس ما ساد بقولهم أنّ التخاطب يجري بين "أنا" و"أنت"[3] وهنا كسب المزيد من التعاون والتأديب وجلب انتباه المتلقي.

3-3-المقطع الثاني: التهيؤ وتشغيل مدارك العقل:

فَهَدْيُ أَحْمَد عَيْنُ الدِّينِ أَجْمَعِهِ وَمِلةُ المُصْطَفَى مِنْ أَنْوَرِ المِلَلِ
لَمْ تَطْمِسِ العَينَ بَلْ أعطته قُوَّتَهَا حَتىَ يُقِيمَ الذِينَ فِيهِ مِنَ المِيَلِ
فَخُذْ بِسِرِّكَ عَنْهُ مِنْ مَرَاكِزِهِ عُلُّوًا إِلَى القَمَرِ الأَعْلَى إِلَى زُحَلِ
إِلَى الثَّوَابِتِ لَا تَنْزِلْ بِسَاحَتِهَا وَانْهَضْ إِلَى الدَّرَجِ العَالِي مِنَ الحَمَلِ
وَمِنْهُ إِلَى القَدَمِ الكُرْسِيِّ ثمَّ إِلَى العِرْقِ المُحِيطِ إِلَى الأَشْكَالِ وَالمُثُلِ

[1]-الفتوحات المكية،ج3،ص452.

[2]- سورة العنكبوت، الآية 45.

[3]-استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة، بيروت-لبنان، ط1، 2007، ص234. وينظر: المقاصد اللغوية ودورها في فهم الخطاب الشرعي، ص164.

إلَى الطَبيعَةِ للـنَّفسِ النَّزِيهَةِ لِلْـعَـقْلِ المُـقَيَّـدِ بِالأعْـــــرَاضِ وَالعِـــلَـلِ

إلَى العَمَـاءِ الذِي مَا فَـوْقَــهُ نَـفَـسٌ مِنْهُ إلَى المَـــنْزِلِ المَنْعُـوتِ بِالأَزَلِ

يتمُّ في هذا المقطع تشغيل قدرة الخيال التي سمَّاها حازم القرطاجني بالقوة (الحافظة)*، ويمثل الخيال بعثا لتلك الثنائية المتحققة في(الروحي/الحسي)،وتأخذ مداها المطلق في بالبرزخ(العماء) وهو العالم الذي يتوسط الحياة الآخرة والحياة الدنيا. وتتحدد وظيفة الخيال بكونه الشيء الوحيد الذي يسبح فيه الإمكان، ويقوم من وجوهه التأويل، أما الكرسيّ والعرش فلا تقوم به كما ذكر الغزالي.

سبق وأن طرحنا السؤال عن قصدية الإجمال في هذه القصيدة، وههنا نجيب للدور الذي يقوم به كمرحلة لتهيئ المتلقي حتى يستوعب الأسرار الربانية الملقاة إليه، وبدونها يستحيل للمتلقي العادي أن يتجاوز هذه العتبات[1] ما لم يشغل ذوقه وقدرة الخيال والإحساس بالإضافة لقدرة العقل في تمثيل الأشياء.

لكنها في أجمعها لن يكون بحسب ابن عربي إلا لقصد واحد وهو الوصول إلى الحق، فهي طريق من الدنيا إلى الآخرة بمنطق العروج الروحي الذي لا يراه إلا من صار ذائقا عارفا، ونشير فيما بعد إلى هذا النوع من الأحوال.

وذكر(الحقيقة المحمدية، القمر، النجوم، الكرسي، العرش....)، كلها تنبيهات مقصدية كذلك تواصلية لهذا الهدف منها:

1-تنبيه المتلقي ولفته إلى أن يشغل فكره وعقله بمعجزات الله ونعمه، وأولها نعمة الباطن وهي العلم والعقل والحكمة(عنوان الوصية)، فالهداية المحمدية هي المشتركة، والحكمة هي

[1]-حول مفهوم الورود في نظرية الملاءمة ينظر للفائدة المختصرة: التداوليات المعرفية(تطبيقات على آيات من القرآن الكريم)، مولود هيد الله مزايط، مقال من مجلة تحليل الخطاب(البلاغة العربية أسئلة وتاريخ)، بني ملال- المغرب، العدد 3، 2013، ص21-23.

* ينظر: استراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، في حديثه عن الكفاءة التداولية، ص58.

السبيل القويم للتوفيق بين العلم والعمل، وهو ما سعى في ذكره(فاعمل بها، التأسي من أفضل العمل).

2-أما نعمة العقل والقلب، فهي تكريس للثنائية نفسها، العلم اللدني والعلم العقلي والحسي، الظاهر والباطن، فأما اللدنيّ فلا يتحقق إلاّ بالمجاهدة.

3-لا يستقيم هذا العروج الروحي (لا الجسدي) إلا بمبدأ الاستقامة على المنهج المحمديّ.

وهذه الوسائل التواصلية التي تقيم جسرا بين الشيخ والمتلقي عبر الوصيَّة تسعى لتحقيق المعرفة الربانيَّة أو العلم اللَّدني المؤدي للكشف والمشاهدة؛ فإذا كان سيرل قد أشار للقصدية بكونها"المصطلح العام لجميع الأشكال المختلفة التي يتوجَّه بها العقل أو يتعلق نحو الأشياء أو الحالات اللفظية في العالم..."[1]، يتبيَّن إذا أنَّ ابن عربي قد وعى هذا النوع من التَمثُّل، ومن ثمَّ إخراجه في اعتقاد العروج، مدركا أنَّ الغير له استعداد في طريقة التَمثُّل نفسها[2] :

3-4-المقطع الثالث: مرحلة الاستقبال والكشف الصوفي:

وَانْظُرْ إِلَى الجَبَلِ الرَّاسِي عَلَى الجَبَـلِ وَقَــدْ رَآهُ فَلَمْ يَبْـرَحْ وَلَمْ تَــزُلِ

لَوْلَا العُلُــوُّ الذِي فِي السُّفلِ مَا سَفِلَتْ وُجُوهُنَــا تَطْلُبُ المَرْئِي بِالْمقــلِ

لِذَلكُمْ شَــرَّعَ اللهُ السُّجُــودَ لَنَــا فَنَشْهَد الحَقَّ فِي عُلوٍّ وفِي سُفُلِ

إلى أن يقول:

تَــرَى بــِهَا كُلَّ مَعْلُومٍ بِصُورَتِــــــهِ عَلَى الحَقِيــقَةِ لا عَلَى الــبَدَلِ

يمثّلُ الكشف عند ابن عربي أساس تصور المتصوفة، وبلوغ المعرفة"التي يهبها الحق عزّ وجلّ منّة وفضلا لعبده المؤمن من خلال نور يضيء قلبه فيدرك بهذا النور العظيم أسرار

[1]- القصدية التخاطبية في وصايا ابن عربي، ص1.

[2]- وكان ابن عربي على وعي بصعوبة تقبل هذه الحادثة، إلَّا أنَّ في خطاباته كان يرغب أن يكون كلُّ الناس في المرتبة نفسها، ينظر: هكذا تكلَّم ابن عربي، نصر حامد أبو زيد، ص29-33.

ملكه سبحانه ويشاهد به غيب ملكوته وعندها يكون عارفا بالله يرى الأشياء بأرواحها لا كما يعرف العلماء المادّيين الأشياء من خلال بعضها البعض"[1]، والرؤية هي البصيرة.

التواصل: تفاعل كيميائي[2]

ثم يقول:

إنَّـــا إنَـــــــاثٌ لِمَا فِـينَا يُوَلِّدُهُ فَلْنَحْمَدِ اللهَ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ رَجُـلِ

إنَّ الرَّجَالَ الذِّينَ العُرْفُ عَيـَّـــنَهُمْ هُمُ الإِنَاثُ وَهُمْ سُؤْلِي وَهُم أَمَـــلِي

هذان البيتان الأخيران هما قمة التعبير عن الوصيَّة، باعتبارها خطابا إلهيا جاء من سلطة عليا هي الحق تعالى، وتتمثل هذه العملية في استعارة ابن عربي لرمز الأنوثة، فكثير ما قرئ هذان البيتان على ظاهرهما، لكنّ ابن عربي كان يُمثّل لطبيعة الأنثى القائمة على الإخصاب والإبداع والخلق، وهذا وجه الشبه في هؤلاء الرجال.

والعجيب أنَّ مصطلح الرَّجل عند ابن عربي دالٌّ على المراتب(الأنبياء، الصوفية، الفقراء، المساكين، الأولياء، العارفين، الحكماء....)، فهؤلاء وغيرهم تلقوا الوصايا الإلهية الصافية، فكانوا إناثا لما يولدّوه من كلام فيما بعد ويبلغونه للأجيال.

فهذه قمة التعبير عن فعل التلقي وفعل التأثير، ولا ضير فالوصية هي وصل واستمرار وتوالد عبر الأجيال، والكلام(الحكمة الموعظة والنصيحة) فعل وتلقيها انفعال وخلق وتبليغ وتوريث.

[1]– ينظر: الفتوحات المكية، ج1، ص280، وينظر: شعرية الخطاب الصوفي(مرجع سابق)، ص30.

[2]– يمثّل ابن عربي لمفهوم الحكمة هنا بكونها نموذجا يتحقق بالوصايا، وهي الوصايا الإلهية هي قيمة السعادة، وقد عبّر عن هذه الحكمة بكيمياء السعادة ما دامت خلقا وتوليدا، ينظر: بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، ص80.

وفيما يلي إجمال لما فصلناه سابقا **(مخطط عام لمقاصد القصيدة الشعرية)**:

المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الرابع
المصدر الإلهي للوصيَّة -سبب النشأة والخلق	-التهيؤ: -الحقيقة المحمدية العروج الروحي نعمة الباطن: القلب، الخيال،العلم والمعرفة، العقل	-الاستقبال والكشف: -الرؤية القلبية، ورؤية البصيرة -الاتصال بالحق، وهو اتصال يرى به العارف والواصل أسرار الملك، وليس اتصالا ذاتيا عينيا	الوصية: خلق وإبداع وتولد -الصفة الإنشائية لكلام الوصايا التوريث لهذا الكلام الإلهي، وتوريث المعرفة الصوفية

ثالثا: القصد(l'intention) ومستويات التواصل

إذا كان نموذج الوصل عند رومان جاكبسون يجعل عملية التبليغ مجرد عمليَّة نقل تشبه وظيفة النقل عند الآلة، وكان نموذج الإيصال عند أصحاب مدرسة الأفعال الكلامية، يعتمد على تحليل مضامين القول لكشف طبقات القصد، الذي لا يتعدّ بدرجته طلب قصد المتلقي أو المخاطب، فإنَّ النموذج الاتصالي أو الاتصالي يأخذ في الحسبان قصد المتلقي والمرسل معا[1]،كما يأخذ مبادئ التعامل الأخلاقي التي حفظت جزءا كبيرا من نجاح التواصل، الذي لا يبنى على مبادئ العقل ولو كان ذاك لاقتصر التواصل في جزء مهم من التخاطب على المصالح وانتفاء شرط القصد و الإخلاص، فانتفى مطابقة القول العمل[2]، وهذه أزمة كما أشار طه عبد الرحمن تفتقد الكثير من التوجيهات.

[1]-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،طه عبد الرحمن، ص270.

[2]- كان يسعى جون أوستين ومن بعده تلميذه جون سيرل في استفاء هذا الشرط في الأفعال الكلامية،ولا ضير فأوستين أستاذ في فلسفة الأخلاق. ومن أهم ما نوَّها عليه حول الصدق، أنَّ للقصد بمعنى الإرادة دور كبير في التفريق بين مرسل صادق وآخر كاذب، بمعنى أنَّ المعاني غير كامنة فيما يوظفه المتكلم من أدوات لغوية، ينظر: القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وشن دلال، مقال، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة-الجزائر، العدد6، جانفي 2010، ص 32.

كان ولا بدَّ في هذا العنصر أن ندرس المقاصد في إطار عملية التواصل وعلى طريقة التصوف، ولنكشف الرهان الأوسع وهو قمة التأثير في المتلقي وجعله فاعلا متفاعلا، وقد سعى أوستين[1] لتقعيد القواعد من أجل إنجاح التواصل وإبعاد العقم التواصلي الذي يبوء إلى الفشل، أما سيرل فانتبه إلى المضامين غير المباشرة، حتى يعلل بعض العوائق الناجمة عن عدم فهم التعابير الغامضة التي لا تجري والعرف اللغوي الاجتماعي، قمتها في الأخير التغيير في الأفعال دون تحديد لمستوى الأخلاق.

1-الأدوار المهمة للغة ووظائفها البيانية:

نعرج إلى عنصر مهم وهو الحديث عن (الأدوار المهمة للغة ووظائفها البيانية)، التي تصبو إلى النهوض بفعل المتلقي، لكنَّها في منحى آخر هذه المرة تراهن على تواصل إلهاميّ ورباني عرفانيّ يحقق أعلى مستويات التواصل والقرب والقبول، فصحيح أنَّ للغة وظيفة ندائية، مرجعية ،شعرية، إقامة الاتصال،.....بل أصبحت اللغة الآن في أصلها تعيش بين ذوات مختلفة وتنشأ ليس في المعاجم، فقط بل تحيا بالاستعمال، وتتكاثر بالعمل.

وهذا على قول القائل" أنَّ الطريق إلى حقائق التخاطب فيه ما ليس في غيره من شعب اللغة، ففيه التبليغ، وتبليغه نشأ فيه من المعاني مشتركة بين ذوات مختلفة، وفيه التدليل وتدليله يجعل من كلِّ قول دليلا على مدلوله يطلبه الغير في نفسه أو في أفقه، وفيه التوجيه وتوجيهه يبث في الأقوال قيما تستنهض همة الغير للعمل، فيكون كل أصل اللغة الإنسانية أصلا تبليغيًّا تدليليًّا توجيهيًّا ولو كان لفظا واحدًا لا غير، فقد يقدر في الذهن ما ليس له تحقق في العين".[2]

[1]- للوقوف حول هذه الفكرة وبرؤية شاملة ينظر: الأفعال الإنجازية في اللغة العربية المعاصرة ، علي محمود حجي الصراف ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، ط1، 2001، الفصل الأول والفصل الثاني من الكتاب.

[2]-في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،طه عبد الرحمن،ص27.

يقول ابن عربي :

وَصَّــى الإلَهُ وَأوصَتْ رُسْلُه فَلِذَا كَانَ التَّأَسِّي بِهِمْ مِنْ أفْضَلِ العَمَلِ

لَوْلَا الوَصِيَّةُ كَانَ الخَلْقُ فِي عَمَهٍ وَبِالوَصِـيَّةِ دَامَ المُـلكُ فِي الـدُّوَلِ

فاعْمَلْ بِـها وِلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَـهَا إنَّ الوَصِـيَّة حُـكْم اللهِ فِي الأَزَلِ

فأول ما نبَّه عليه ابن العربي من خلال أدوار اللغة هو (الانجاز والبيان)، وهي قمة التداول التي تجعل لكل عبارة دليل عملي[1] تحقيقيّ يجعل من الوصية حكما مبطونا في الأزلية الإلهية، وممتداً في الزمن مادامت كلاما يشهد له هذا التواتر عبر الزمن ويمدّه بالاستمرار، وهذا عين المفهوم الصوفي للخطاب الوصيَّة، لذلك فإنَّ" هذه الدلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول المعاني على المفردات في المعجم، وإنما تنشأ وتتكاثر وتتعرف من خلال العلاقة التخاطبية."[2]

2-التواصل العرفانيّ والروحانيّ:

ويقودنا هذا إلى أنَّ التواصل العرفاني يتحقق بقمة القرب التي يشدوها المتصوف السالك والمريد من الله، بالمجاهدة والرياضة الروحية والاستقامة لميزان الشرع، فيقع على الإشارة الصوفية من المقاصد التي لا يسهم في فكِّها إلَّا إدراك هذه التجربة الروحيّة العمليّة، فتنهض مؤشرات حالية وقرائن معنوية للإضمار الذي يصبغ العبارة:

لَوْلَا العُلوُّ الذِي فِي السُّفْلِ مَا سَفِلَتْ وُجُوهُـنَا تَطْلُبُ المَرْئِيَّ بِالمُقَـلِ

لِـذَلِـكُمْ شَـرَّعَ اللهَ السُّـجُـودَ لَـنَـا فَنَشْهَد الحَقَّ فِي عُلُوٍّ وَفِي سُفْلِ

ومقصد ابن عربي من هذا الإجمال جرى بيانه في الجزء الأول من الوصايا، ففي الحديث القدسيّ" **وإن تقرب منيّ شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرَّب مني ذراعا، تقرَّبت منه**

[1]- ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث،طه عبد الرحمن، ص400.

[2]-في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص50.

باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"، يقول في شرحه للحديث "[1] وسبب هذا التضعيف من الله ولا أقلّ من العبد ولا أضعف، فإنّ العبد لا بد أن يتثبت من أجل النية بالقربة إلى الله في الفعل، وإنه مأمور بأن يزن أفعاله بميزان الشرع، ..."[2]، لذلك فإنَّ التدبُّر في فهم السرعة عند ابن عربي في هذا الحديث ليس بفهم الزمن المعجمي، بل بالأحوال والنية والمقاصد.

وهذا القرب الذي يحظى به العارف من السجود يؤسس للتواصل الربانيّ والإلهاميّ بضمان الإشعاعات والنور "يقول العارف سجد وجهي أي حقيقتي، فإنَّ وجه الشيء حقيقته للذي خلقه أي قدرّه من اسمه المدبر"[3]. أما ما يحيل إليه هذا النوع بالذات امتداد الأثر إلى الآخرين، فيبني الناس علاقاتهم وتخاطبهم انطلاقا من هذه المبادئ المبنية على الصدق والتعاون، واللطف في الإرشاد والتوجيه، وقد تحقق نوع منه فيما يصطلح عليه بالإستراتجيات التضامية[4].

فالقربات بعامة كالنوافل والذكر، هي قمة التواصل بين الخالق والمخلوق وبخاصَّة السجود، بل وهوأعلى درجات التجلي الإلهي لقوله تعالى: ﴿ ▩□⬀♌♑❹⬀⌘✌▩□⬀▩ ▩□✌✠☪♉☜♦⬀❁⇧☜⬀☮☪✠✌▩□ ﴾[5].

وإذا كان التواصل عند هابرماس في ظل هذه الرؤية يشدو إلى تشييد مجتمع يهدف الوصول لقبول الآخر فإنّ" الصلاة تتجاوز هذا الرهان في اتجاه أنطولوجي أكبر ينبني على

---

[1]–وصية رقم 6من كتاب الوصايا ص18–19، ويعزى تخريج الحديث إلى عدة مصنفات منها: صحيح البخاري(7009)عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وجاء في صحيح مسلم(4857، 2668) عن أنس بن مالك أيضا، ومسند أحمد بن حنبل(11878/12060).

[2]–الوصية 6.

[3]–الأفق التداولي، إدريس مقبول، ص139.

[4]– الإستراتيجية التضاميَّة هي "محاولة التقرُّب من المرسل إليه وتقريبه"، ينظر: إستراتيجيات الخطاب، ص257.

[5]–سورة العلق، الآية 19.

القبول/ الإيمان بالله صاحب هذا الوجود، في حين يبدو رفض الصلاة هدما لهذا الضرب من التواصل الجوهري"[1].

3-المقاصد التواصلية(l'intentions communication) وقواعد التخاطب:

مهَّد ابن عربي في مستهل هذه المقدمة الإجمالية لباب التواصل وتأسيس أسباب التعاونcoopération على أساس الصدق"ومتى تحقق المتكلم بالصدق في الخبر والصدق في العمل والصدق في مطابقة قوله لفعله انفتح باب التواصل الصادق بينه وبين المخاطب وتزايدت أسباب التقارب بينهما".[2]

ويعدُّ أول بناء قصدي تواصلي عند ابن عربي في وصاياه يتجسَّد في الافتتاح العنواني[3]؛ إذ مهَّد هذه النصوص وخطابها قصدان: هما قصد التبليغ(وصيَّة حكمية)، وقصد التوجيه التعاملي الأخلاقي(ينتفع بها المريد السالك والواصل ومن وقف عليها إن شاء الله تعالى)، وبهذين القصدين يكتب لخطاب الوصايا النجاح التواصلي، وفيما يلي بيان تفصيل لما ذكرناه:

يقول ابن عربي:

فَاعْمَلْ بِهَا وَلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَهَا إنَّ الَوصِيَّةَ حُكْمُ اللهِ فِي الَأَزَلِ

ذَكَّرْتُ قَوْمًا بِمَا أَوْصَى الإِلَهُ بِهِ وَلَيْسَ إِحْدَاثُ أَمْرٍ لِلْوِصِيَّةِ لِي

---

[1]-الأفق التداولي، ص141.وينظر مفهوم السجود عند ابن عربي في المعجم الصوفي سعاد الحكيم،ص565. وينظر تأصيل طه عبد الرحمن للنظرة الصوفية في التقرب وسماها العقل(التحقق بالنوافل التي هي عبودية اختيار، فيحصل للمتقرب أحوالا من المحبة تمنعه أن ينقطع عن الفرائض) المؤيد إشارة للعمل والتجربة الروحية ضمن كتابه السابق، العمل الديني وتجديد العقل، ص157-158.

[2]-اللسان والميزان، ص253.

[3]-جاء في المقاييس في مادّة(عنى): " قال الأعرابي: ما اعرف معناه ومعناته، والذي يدلُّ عليه قياس اللغة أنَّ المعنى هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه. يقال: هذا معنى الكلام ومعنى الشعر، أي الذي يبرز من مكنون ما تضمنه اللَّفظ..."، فالعنوان من المعنى وهو القصد، ج4، ص148-149.

3-1-مميزات القصد:

3-1-1-المقصد التواصلي:

" الطريقة" التي يقصدها مفصَّلة في باقي الوصايا المستمدة من القرآن والحديث النبوي وأخرى متشعبة تتشرَّب من المبدإ الأخلاقي: الهدف الموجّه والحكمة البالغة، ورؤية صالحة وأسرار إلهيَّة.

أما سمة "المذكّر" التداولية فلا تكاد تنفصل عن الإستراتيجية التضامنية في توجيه الخطاب:

- الاستمرارية في الزمن: والمنفعة العاجلة والآجلة، يقول ابن عربي في تفصيل وصاياه:" فإن لم تنفعك فاتهم ايمانك لأنَّ الله **يقول** ﴿ ﴾[1].
- البعد التواصلي الخطابي للنص: فبقدر ما يُهتَّم بالنص التنظيري للوصايا والمواعظ، بقدر ما يهتم العامة بالأخلاقيات التي تنزع للعمل" لأنها شاهد قرب لا انفصال"[2].

3-1-2-المقصد التفاعلي l'intention interactionnel :

هنا تدخل الذات المتلقية وتتجسد في العلاقة الواضحة التي تبرز سمة التداول والتواصل بين المرسل والمرسل إليه، وهي فعل التوجيه والنداء....يقول ابن عربي:

في وصية نبوية لأبي هريرة: " **يا أبا هريرة ارحم جميع خلق الله يرحمك الله من النار يوم القيامة، قلت يا رسول الله: إني لأرحم الذباب يكون في الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمك الله رحمك الله رحمك الله.**"[3]

- قرب المسافة بواسطة الأداة الندائية، وتتميز هذه الأداة نداء نبويّ من سلطة إلهية عليا، تأمر بالرحمة.

---

[1]-سورة الذاريات، الآية55.

[2]-تجديد المنهج في تقويم التراث، ص400. وينظر حول مفهوم النصية: النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب الحديث، ط1، ص100-107.

[3]-الوصية رقم 81 من كتاب الوصايا ص192.

- النزول لأضعف مخلوقات الله وهو الذباب لأنَّه فهم أقصى درجات الرحمة التي يغفل عليها النَّاس وهذا ما يشدوه المتصوفة ويذكر ابن عربي أنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء.
- دلالة التكرار عند الصوفي ليست متماثلة فلكل لفظ مقصد معين.
- يمكن أن نميّز درجة بلوغ التقاصد كما نوَّه طه عبد الرحمن إذ يصير الفهم إلى مستوى الوصال، وهو من بين الإشكاليات في "الملاءمة" بين قصد المتكلم وتأويل المتلقي.

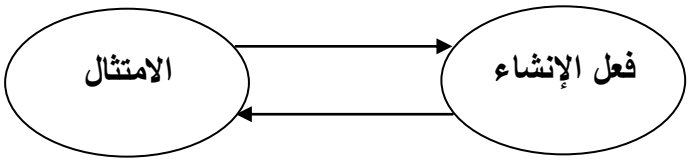

المبحث الثاني: قصد الفهم والإفهام (المقاصد التفصيلية والبيانية" المقاصد الموضعية)

أولا: مفهوم اللغة والنص عند ابن عربي:

يتأسّى ابن عربي بالمصدر الأول وهو القرآن الكريم[1]،كما هو الحال حول نشأة اللغة في الرأي القائل أنَّ اللغة إلهام وتوقيف من الله تعالى؛ واللغة عند ابن عربي لا تبتعد عن هذا الرأي،إلا أنَّها تسير من الداخل إلى الخارج؛ أي من لغة الأعماق والمعاملات القلبية إلى لغة الشهود.

[1]–الإشارة والرمز عند محي الدين بن عربي ضمن كتاب اللغة والمعنى(مقاربات في فلسفة اللغة)، ص 85–86، وحول مسألة نشأة اللغة ينظر على سبيل الفائدة: التصور اللغوي عند الأصوليين،أحمد عبد الغفار، عكاظ، ط1، 1981، ص 40 وما بعدها.

يعني ذلك أنَّ التسمية هي الأصل في تكوين هذه اللغة، ويصحُّ أن نسميها "المصطلح"، لكنه ليس ترجمة لمفاهيم مجردة هذه المرة بل هو ترجمة لسلوك وعمل وينطبق عليها قول طه عبد الرحمن[1] بأنَّها تتميز بالمبادئ الآتية:

1-المبدأ الوجودي:لا يمكن نقل التجربة الوجودية من حيث هي تجربة نقلا لغويا إلاّ أن تترك أوصاف الوجود العالقة بها، وهذا ما يجعل الإشارة والعبارة تختزن تلك التجارب والأحوال.[2]

ولشرح هذه الفكرة نستأنس بالوصية التالية، حيث يقول ابن عربي شارحا التجوُّزات والتشبيه الذي يخصُّ اللغة لأنَّ المتَّجه للعبارة اللغوية قد لا يقع على المدلول الحقيقي بل تقرّبه، نظرا لتمايز اللغة ترميزها عن الوجود "...**وإنَّ للشيطان فتنة فاستعذ بالله منها، وراقب قلبك وخواطرك، وزنها بميزان الشريعة الموضوع في الأرض لمعرفة الحق فإنّك إذا فعلت ذلك كنت في أمورك تجري على الحق، فإنَّ إبليس يضع عرشه على الماء لما علم أنَّ العرش الرحماني على الماء، يلبّس بذلك على الناس أنَّه الله، كما فعل بابن صياد، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم(ما ترى؟) قال: أرى عرشا على البحر[3]، فقال(ذلك عرش إبليس) يقول الله تعالى:" وكان عرشه على الماء" ثم قال" ليبلوكم" والابتلاء: فتنة، فإبليس ما له نظر إلاّ في الأوضاع الإلهية الحقيقية فيقيم في الخيال أمثلتها ليقال هي عينها فيغترُّ بها من نظر إليها وما ثمَّ شييء...**"[4].

---

[1]-العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، ص165، وبخصوص التسمية ومفهومها عند الشيخ ينظر : ابن عربي ومولد لغة جديدة، سعاد الحكيم، ص71-72، وسنشير في العناصر الموالية لأصل الكتابة عند ابن عربي ومفهوم الإنشاء القائم على رؤيته وتجربته الكشفية.

[2]-ينظر حول هذه الفكرة وبنظرة تداولية معرفية:عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير، ص45.

[3]- الحديث ورد تخريجه في عدة مصنفات منها:أخرجه أحمد في المسند(11/16 برقم 14729) وابن حبان في صحيحه(1398برقم 6909) والبخاري في صحيحه(96/3823برقم 6961)، وورد في صحيح مسلم برقم 5345، وسنن أبي داود برقم3830...

[4]-الوصية رقم 66 من كتاب الوصايا ص154.

يمكن أن نلمح وعي ابن عربي هنا حول الطبيعة المتمايزة بين اللغة والوجود، والصورة التشبيهية التي تسهم في تيهان القارئ إذا لم يكن حصيفا، لذلك فابن عربي فسَّر هذه الظاهرة انطلاقا من :

– تنبُّهه للقرينة اللفظية(ليبلوكم)، التي استخرجها من الآية نفسها.

– تنبُّهه للقرينة الحالية الخاصة بابن صياد(وهي الاحتراس من تبليس إبليس، ولا سبيل لذلك إلاّ بميزان الشريعة).

–تنبُّهه لمَا يمكن أن يوقع في التشبيه، الذي غالبا ما تتميز به اللغة حينما تنتقل من الخاصية الطبيعية إلى الخاصية المجردة مثلما هو الحال في هذا الشاهد[1].

–2–**المبدأ الخطابي1**: أي أنَّ الكلام يوافق مقتضى الحال، والصوفي يأتي بالأقوال المناسبة للأعمال

–3–**المبدأ الخطابي2**:إنَّ مقامات الكلام متفاوتة، فلكلّ تجربة روحيَّة معرفة معينة؛ يقول ابن عربي:"**عليكم بذكر الله في السر والعلن وفي أنفسكم وفي الملأ، فإنَّ الله يقول:" فاذكروني أذكركم" فجعل جواب الذكر من العبد الذكر من الله، وأيّ ضراء على العبد أضرّ من الذنب؟ وكان يقول صلى الله عليه وسلم(الحمد لله على كل حال) وفي السراء(الحمد لله المنعم المفضل) فإنكّ إذا أشعرت قلبك ذكر الله دائما في كل حال لا بدّ أن يستنير قلبك بنور الذكر، فيرزقك ذلك النور الكشف، فإنّه بالنور يقع الكشف للأشياء، وإذا جاء الكشف جاء الحياء يصحبه...**"[2].

وهذا فيما نعتقد أكبر مثال حول تكوّن المعرفة الصوفية، بحسب الأحوال التي يلازمها الصوفي كالذكر، لكي يرتقي من مقام إلى مقام، ومن خطاب إلى خطاب، وهذا عين الكشف ورؤية البصيرة.

[1]– ينظر حول هذه الفكرة: لعمل الديني وتجديد العقل، ص164.

[2]–الوصية رقم 5 من كتاب الوصايا ص17.

من هذا الرأي نشتق رأيا آخر حول غموض العبارة الصوفية، وتجردها نحو الإضمار" فليست كل دلالة غير مباشرة دلالة غامضة، ولا كل دلالة غامضة دلالة غير مباشرة،حتى يصدق في حق الصوفي أنَّ كلامه مستغلق على الدوام، وليس الانتقال من الدلالة المباشرة إلى الدلالة غير المباشرة عنده انتقالا خارجا عن الطرق المعهودة في التخاطب العربي الطبيعي حتى يعدَّ كلامه ضربا من اللغو والعبث"[1].

لذلك فإنَّ الغموض الذي ينسب إليهم ناجم عن عدم مشاركة الصوفي أحواله التي تؤول إلى الذوق والتجربة القلبية وهو عند ابن عربي مرحلة "الكشف والشهود"،[2] وقد بينا جزءًا من هذا الرأي في المبحث الأول؛ فالسياق التداولي والمعرفي كفيل بأن يحرّك ذات المتلقي، التي لا تخرج عن القدرات الخياليَّة، والقدرات الذوقيَّة القلبيَّة والقدرات الحسيَّة، والتَّجربة الحية والعمل، فجميع هذه المقاييس كفيلة بأن تطرح هذه الإشكالية في عمق التحليل.

لذلك كان الإجمال والتفصيل هنا خاصيتين من خصائص اللغة الطبيعية، وليس فقط أسلوب في الشكل التركيبي؛ أي أنَّ اشتغال اللغة في الذهن يكون إجمالا، أمَّا إذا عبَّرت اللغة تصبح بيانا وتفصيلا بالألفاظ الواضحة، وهنا مفهوم الصوفي هو مفهوم القرآن الكريم، وهذا الذي سنشير إليه في العنصر الآتي:

ثانيا:النَّص عند ابن عربي:

ربَّما لا يَسعُ هذه الورقة العلمية بسط إشكالية مفهوم(النَّص le texte) في التراث العربي، لتشعبها وصعوبة سردها هنا، إلاّ أنّنا سنكتفي بما يخدم هذا العنصر.

كان ابن عربي على وعي كامل من حيث تجربته الكشفية مع الخطاب القرآني بالنَّص، وكونه ابتدأ وصاياه بطريقة الصوفي الباطنية(المقدمة الإجمالية)، يفسر جوهر

[1]–العمل الديني وتجديد العقل، ص162.

[2]–ينظر المعجم الصوفي، ص971–972، و ينظر: بنية الخطاب الشعري في الفتوحات المكية لابن عربي، قدور رحماني(رسالة دكتوراء)، جامعة الجزائر، 2006،ص 162. وآليات التواصل عند ابن عربي، ص80.

تحديد(مفهوم النص)، وملخصه أنَّ النص(إلهام وإشارة)[1]، فيكون اللِّسان حينئذ بيانه وتفصيله الذي يترجم أحكامه ويبين مجمله، وهذا المفهوم انعكس على لغة ابن عربي، وصار عمودها الفقري، أي التأسيّ بلغة الوحي القرآني والنبوي، وصار البيان والإظهار مقصدا ومبلغا يسير فيه في أغلب الوصايا على سيرة الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا تغدو وظائف النص لا تتوقف على ما هو معهود من منظري **وظائف اللغات** بدءًا من **جاكبسون** "**Jakobson roman**" مرورا بآخر محطة وهي "الانفتاح على المنشئ والمتلقي"، ذلك أنَّها لغة تخلق أشخاصا لا يفكرون بعقل واحد على حد تعبير طه عبد الرحمن، بل هناك" العقل الحسي والعقل الخيالي والعقل الوجداني والعقل الذوقي والعقل الروحي " .[2]، وهي ألصق ميزة من ميزات اللغات الطبيعية.

ولأنَّ المقاصد والأحوال سابقة عن تفصيل اللغة، فتقع التجربة في ضيق العبارة، ويستلزم على المتلقي حينها أن يشغّل أكثر من قدرة إدراكية، وإعمال أكثر من مقياس؛ لغوي ودلالي وتداولي وذهني معرفي.

لكنَّها–اللغة– تبقى أداة للتبليغ وآلة للبيان" لأنَّ الله تعالى أخبر عمّن هذه صفته أنه يدعو إلى الله على بصيرة، فمن التأسي المأمور به برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن ننطق على تلك المعاني هذه الألفاظ النَّبويَّة، إذ لو كان في العبارة عنها ما هو أفصح منها لأطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3].

وهذا فيما نرى عنصر آخر يسهم في حلِّ جزء من الإشكال الذي طرحناه حول مقدمة الوصايا الإجمالية؛ المقاصد الموضعية: ترميز للذهن بوَسَاطَةِ اللغة وهمنا عمق التنبه

[1]–الإشارة والرمز عند محي الدين بن عربي، ضمن مرجع، اللغة والمعنى(مقاربات في فلسفة اللغة)، ص93.

[2]–اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص221.

[3]–الفتوحات المكية، ج ، ص305.

لخصائص اللغات الطبيعية؛ إجمال ذهني قصدي وتفصيل لغوي بياني ترميزي[1].

ثالثا: الفهم والإفهام والمقاصد الاعتبارية:

يبدو أنَّ الكشف عن المقاصد في هذه الوصايا يتعلَّق جزء كبير منه بالمبدأ الأساس وهو الأخلاق والعمل، وهي ذات منبع داخلي، وذات توجه رباني يشكل هذا الفعل قيمة ضغط شديد في توجيه خطاب الوصايا وتلقيها على وتيرة ليست بالمكافئة من قبل المخاطب .

من هنا كانت" قيم الصلاح أو الفساد أو المصالح الروحية، وهي المعاني الأخلاقية التي تقوم بها كلّ المصالح أو المفاسد التي تطرأ على عموم القدرات الروحية، يكون الشعور الموافق لهذه المعاني هو السعادة عند حصول المصلحة والشقاء عند حصول الفساد ويدخل في هذا الدّين من جانبه الرّوحيّ مثل الإحسان والرحمة والمحبة والخشوع والتواضع"[2] السابقة في تشكيل أي خطاب، ومقصدا مهما من ورائه يبحث فيه عن الحِكْمة والأسرار.

وهذه النظرية تتأسس عليها أغلب وصايا ابن عربيّ، يمكن القول إذن أنَّها نظرة سلوكية أخلاقية وتجربة روحية، تجعل هذه الأخلاقيات في طليعة البحث عن المقاصد، وتبقى معطى داخليا يتحقق أولا قبل أن نبحث عنه خارج كياناتنا. وليصل ابن عربي إلى هذا المقصد اتَّخذَ من النماذج القرآنية والأحاديث النبوية، ومن **طريقة الوعظ والنصح والحكمة والرؤيا المناميَّة والقصص** وسيلة لبلوغ هذه الغاية.

---

[1]– المقاصد الموضعية هي الناتجة عن المحتوى القضوي (مواضعات اللغة وتركيبها) وتتعلق بالأفعال الكلامية الصريحة المطابقة للقصد كالإخبار، أمَّا المقاصد الإجمالية فهي استلزام ناتج من المعاني الأولى، يتدخل في تشكيله السياق وشكل لخطاب اللغوي، ذكر طه عبد الرحمن أنَّ الشروط التي اقترحها "سيرل" والمتعلقة بالأفعال الكلامية تخص جانب الجملة، فنحتاج لفعل خطابي خاص بالنَّص وهو الأمر المستدرك من قواعد التخاطب لغرايس، ومن جاؤوا بعده، ينظر اللسان والميزان، ص260–264، وينظر: التداولية اليوم علم جديد للتواصل ، آن ربول وجاك موشلر، ترجمة سيف الدين عقوس ومحمد الشيباني، ص206.

[2]–تجديد المنهج، ص141.

إنَّ استقامة جهاز التخاطب وتحصيل قصد(الفهم والإفهام)، استدعى استعمال تقنيات توصيل المقاصد الرَّبانيَّة في طوق الشريعة، إلَّا أنَّ لابن عربي والمتصوفة بعامة رأي بجعلها مظهرا لباطن هو الحقيقة[1](أو الحكمة والغايات من وراء الأشياء التي يظفر بها أهل العلم اللَّدنيّ). يقول ابن عربي بخصوص المعاملة في ظلِّ هذه النظرة:"**وعامل الحيوان بالنظر فيما يحتاجون إليه، فإنَّهم خرس، وعامل الأشجار والأحجار بعدم الفضول، وعامل الأرض بالصلاة عليها...**"[2].

هذا ما يجعل للتواصل مقصدا آخر، إذ أنَّه لا يُبنى على أساس قوانين العقل في التخاطب الإنساني وفقط، بل يجعل للتعامل الأخلاقي النصيب الأوفر"ولا خاصيَّة يمكن أن تنهض بهذا الدور من "الخاصية الأخلاقية"،فهي وحدها الخاصية العملية القادرة على إمداد المتكلم بمزيد من الإنسانية على المستوى التعاملي كما تمده الخاصية العقلانية بها على المستوى التواصلي."[3]

رابعا: آلية المعرفة الربانية: التأويل

يملك ابن عربي اللغة في كل مستوياتها الاستعمالية المقامية؛ لذلك فالقصد الرّبانيّ هو هدف المتصوفة، وتكوين"**إنسان كامل**" ليس بالأمر السهل، فقد يأخذ بالحِكْمة، وقد يجهل كيفية العمل بالموعظة مثلا[4]، وعندما يستعمل ابن عربي **وصية** قصد إفهام متلقيه، فإنه يلجأ إلى "الوصية النَّبويَّة" مثلا فيبدأ بالشعر الذي يحمّله المعرفة والأسرار الإلهية إشارة للَّطائف المعاني والمقاصد التي لا تتكشف إلَّا **لأهل البصر والاعتبار** فيجعلها طريقة أخرى لفهم الحديث النبوي الموجه لأبي هريرة رضي الله عنه، فيأتي التفصيل بعد الإجمال:

---

[1]–الاستعارة في الخطاب الصوفي، جراح وهيبة، الاستعارة في الخطاب الصوفي، جراح وهيبة(رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري، تيزي وزو– الجزائر، 2012، ص88–89.

[2]–الوصية رقم 81، الوصايا ص191.

[3]–اللسان والميزان، ص220.

[4]–ينظر: الفلسفة الأخلاقية المعاصرة،طه عبد الرحمن،مقالة، منشورة بتاريخ: الثلاثاء 28 سبتمبر 2010، ص10.

جاء في بعض وصايا ابن عربي[1]: "**أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا هريرة رضي الله عنه فلنذكر ما يسَّر الله على قلمي الذي أنشئ به صور الحروف الدالة على المعاني، وفي مثل هذا قلت أخاطب الخادم الذي يقد لي السراج حتى أكتب ما يلقي الله في روعي من الأسرار الإلهية والمعرفة الربانية:**

قِدِ السِّرَاجَ عَسَى أَحْظَى بِرُؤْيَتِـهِ وُأُنْشِئُ المَلَأَ المَرْقُومَ فِي الوَرَقِ

فَمَـا تَـرَى طَبَـقًا يَعْنُـو لِخِدمَتِهِ إلاَّ وَيُخْـبِرُ بِالأَحْـوَالِ عَنْ طَـبَقِ

فِي أَحْرُفٍ مَا لَهَا حَدٌّ فَيُحْصِرُهَـا تَبْدُو مَعَانِيهِ لِلأَبْصَـارِ فِي نَسَقِ

يُخَطِّطُ القَلَمُ العُلْوِيُّ صُورَتَـــهَا عَلَى يَـدِي دَائِمًا مَادَامَ لِي رَمَـقِي

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم ..."

إنَّ المقصد قد يصاغ في أكثر من معنى من طبقات النَّص، إلَّا أنَّ لجهد المتلقي وقدرته الاستدلالية لملاءمة "pertience" المعنى المؤول قد يحتاج إلى أكثر من سياق احتمالي حتى إذا ظفر إلى بلوغ ذلك من الفهم رجَّح احتمالا عن آخر وعلى هذا "فإنَّ النَّص لا يتمظهر في شاكلة واحدة، وإنَّما في كيفيات مختلفة وراءها مقصدية المرسل ومراعاة مقصدية المخاطب، والظروف التي يروج فيها النص، وجنس النص..."[2].

وعليه يمكن أن نعتمد على المعطيات الآتية كمؤشرات لآلية الإفهام في الوصيَّة النَّبويَّة عند ابن عربي وبلوغ الفهم والمقصد معا:

1-المعارف والأسرار الإلهية:[3](الأحرف أو الحرف، القلم العلوي، الإنشاء)

[1]-الوصية رقم98 من كتاب الوصايا، ص 213، الحديث رواه الطبراني في جزء محذوف، ورواه الإشبيلي في الفهرست، ص243، ينظر: الإسلام سؤال وجواب، محمد صالح المنجد، الحديث وعلومه، تاريخ: 2011/12/07.

[2]-استراتيجيات الخطاب، الظافر الشهري، ص212.

[3]-حول معرفة هذه المصطلحات ينظر المعجم الصوفي، ص320، وص922-929.

بداية إنَّ فكرة الإنشاء"illocution" التي يلوح حولها هذا المقطع هي البؤرة الرئيسية الموصلة لفهم الكلام أو الخطاب الموّجه، ذلك أنَّه خلق وإبداع، وهذه الحقيقة موطنها الأصلي بحسب ابن عربي محمولة في شيء آخر وهو حقيقة الحرف والقلم العلوي.

لذلك فالرؤية العرفانيَّة تتجاذب من الإضمار والإشارة إلى حدٍّ تطلب فهمها فك الإشارة، بالرجوع إلى كتابه الفتوحات المكية، والاستعانة بالمعجم الصوفي.

ذكر ابن عربي صفة **القلم العلوي**" الذي هو سلطان التدوين والتسطير،لأنَّ الوجود في نظره " كتاب مسطور، وكل حقيقة فيه متفردة هي حرف، وكل حقيقة مركبة هي كلمة"[1]، لذلك فهي تشبه تماما حقيقة المتكلم باعتباره قلما والمتلقي هو الكتاب، فيجري فعل الكلام في المتكلم كما يجري فعل القلم في الكتابة.

القلم عند ابن عربي صفة الفعل"acte "[2]التي تؤثر في اللوح المحفوظ:" فالطلبة والتلاميذ للشيخ المتحقق . ..ألواح منحوتة لرقمه وكتابته"،[3] وعلى هذا قال" فلنذكر ما يسَّرَ الله على قلمي..."، وعلى هذا كانت "الحروف حقائق ما لها حدّ".

هناك إشارة مهمة حول الكتابة التي تأخذ بعدًا أنطولوجيا سابقا:

يُخطِّطُ القَلَمُ العُلْوِيُّ صُورَتَهَا عَلَى يَدِي دَائِمًا مَادَامَ لِي رَمَقِي

قد اختلف الكثير حول قصدية الكتابة [4]عند ابن عربي، وفي قوله" إملاءات ربانيَّة"، وهذا ما يفسِّر أنَّ القلم العلوي هو السابق في الكتابة، فجاءت أقواله بأنَّ هذه المعارف

[1]–المعجم الصوفي، سعاد الحكيم، ص923.

[2]– نستعمل عادة في البحث مقابلا أجنبيا للمصطلح العربي، وليس هذا من قبيل المطابقة إنَّما على أساس معرفي هدفه توضيح أهم المصطلحات في المنهج التداولي.

[3]–المعجم الصوفي، وسبب تسمية القلم الأعلى: أول مخلوق عقل عن الله، والقلم هو محل التفصيل بالنسبة للمداد محل الإجمال(العلم)، والمداد هو حرف النون وهي الدواة، وهذا المداد بدوره هو محل إجمال بالنسبة إلى اللوح المحفوظ (محل التفصيل)، ينظر: المعجم ص 924، وص1037، الفتوحات، ج2، ص130.

[4]– ينظر: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص277.

الربانيَّة إنَّما هي إملاءات، كان على المتلقي أن ينفرد بحكمتها، وهي أن يكون منفعلا بالأوامر والمواعظ الربانيَّة.

2-الوصية النّبوية: الإنشاء والإنسان الكامل(درجة التلقي المثالية)

هذا الجزء من الوصية هو جزء تفصيلي، أورده ابن عربي بعد طريقة الإشارة الصوفية التأويلية، والتي جوهرها هو بيان صفة الفعل والانفعال في توجيه الخطاب وإنشاء صفة الفعل في المتلقي العازم ذي الهمّة .

و**القصدية intentionalité** 'بمفهوم الفعل الكلامي هي الأصل، والهدف هو بلوغ قصد المتكلم إلى المتلقي، لكن التأثير لا يتعدى في نموذج **الفعل الكلامي acte parole** تحليل المضمون القولي للوصول إلى المقاصد(كقصد الإخبار و...)،[1] إذ القصد الناجح هو من أدمج قصد المتلقي مع قصد المتكلم وإلَّا" فلا فائدة ترجى من قولنا "أعدك" إذا لم يوجد مخاطب يتقبل الوعد، ونستفيد من ذلك أنَّ الفعل التأثيريَّ ليس مرهونا دائما بمقاصد المتكلم بل يتدخل فيه المتلقي من جهة".[2]

من أمثلة الوصايا النَّبويَّة الموجَّهة إلى أبي هريرية رضي الله عنه "**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: يا أبا هريرة " إذا توضأت فقل بسم (الله والحمد لله) فإنَّ حفظتك لا تزال تكتب لك حتى تفرغ من ذلك الوضوء.يا أبا هريرة إذا أكلت طعاما دسما فقل(بسم الله والحمد لله)...**"[3]

---

[1]- ينظر: اللسان والميزان، ص266، وسماه بالتقاصد لأن المتكلم يقصد بكلامه المستمع، كما يقصد المستمع المتكلم بسماعه.

[2]-التداولية أصولها واتجاهاتها، ص97.للإشارة هنا يعتبر مفهوم الإنشاء عند ابن عربي قد تجاوز رهان أصل وفلسفة الفعل الكلامي" كيف نفعل الأشياء بالكلمات"، باعتيار الإنشاء عند ابن عربي أصل في الخلق والوجود فضلا عن الفعل الكلامي البشري. فكان كتاب" نظرية أفعال الكلام العامة ، كيف ننجز الأشياء بالكلمات ، جون أوستن ، ترجمة عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء-المغرب ، ط1 ، 1991" من إرهاصات البحث التداولي في اللغة الإنجازية حديثا.

[3]-الوصية98، من كتاب الوصايا، ص213-214. وهذا ليبين ابن عربي فيما نعتقد المقاصد الإلهية، وضرورة مرافقة العلم للعمل، فالحمد والشكر مرتبط بكل فعل يفعله الإنسان، وليس مجرد قول فقط. ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ج2، 2004، ص310 وما بعدها.

إنَّ سائر الأفعال التوجيهية في الوصية تسير على خطى ما قصده ابن عربي من الإشارة حول الفعل والانفعال والإنشاء illocution، هذه الأفعال التوجيهية ناجمة" لما يثمره فعل الأمر من استجابة أو عدمها في علاقته بالمخاطب به، فقد يأمر المتكلم زيدا فيقول له: (قم) فهذا المخاطب إن قام لأمره واستجاب لطلب المتكلم، فقد أنشأ فعل التكلم(الآمر) حينئذ صورة القيام في زيد عن نشأة لفظة(قم)، فهو إلهي في هذه الحالة، لأنّ إنشاء الأعيان إنّما هو لله وهذا عام في جميع الخلق"[1].

و إن لم يمتثل للأمر فهو قصور في التواصل، وتعطيل للانفعال، وارتخاء عن الهمّة" ويعطينا ابن عربي مثالا على هذا التخلف في مبدأ التعاون من دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم(الإنسان الكامل).فقد اجتهد بالدعوة، لكن ليس كل من توجه إليهم بالنصح انتصحوا ولا كلّ من خاطبهم بالتوحيد أسلموا"[2].

فهذه الوصايا تؤسّس لقمة التأثير والتفاعل بين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمتلقي أبي هريرة رضي الله عنه، ويمكن أن نسجّل الخصائص الآتية للفعل التوجيهيّ التقويميّ:

- التدرج في الأفعال التوجيهيَّة وهي وحي إلهيّ، متعلّق بمقصد ربانيّ، أُوحيَ بها إلى النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم" الإنسان الكامل"؛ المقوّم للفعل التوجيهي فيكون كاملا مكملاّ[3] لغيره.
- قرب المسافة بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين أبي هريرة رضي الله عنه بواسطة أداة النداء(يا).[4] وللإشارة فقد تميَّز أبو هريرة (ض) من بين الصحابة بقوة الحفظ

[1]–الأفق التداولي، إدريس مقبول، ص132–133، والقصدية لجون سيرل، ص 246–247،والخلق هو ما يقصده بالتكليف فهناك من يمتثل للأمر والتوجيه وهناك من لا يمتثل.

[2]–الأفق التداولي، ص133. والإنسان الكامل هو هدف المتصوفة ككلّ، ينظر المعجم الصوفي حول الحقيقة المحمدية أيضا

[3]– ينظر على طريق التفسير البياني،السامرائي، ج2، ص309.

[4]– المقاصد اللغوية ودورها في فهم الخطاب الشرعي،ص 139–140.

والزهد والورع، وهذا يعلّل مقصد ابن عربي من إيراد هذه الوصايا بالذات[1].

- التفاعل وحضور الهمة في التواصل وخاصيَّة المشافهة والتلقي فقد"كانت عملية التلقي التي أسهمت اللغة فيها بقدر وافر في ضبط الكلام المنقول؛ يعتمد على الوعي والفهم والتلطف"[2] وهذا التلطف من أهمِّ ما يصبو إليه الدرس التداولي، ومثاله النداء بالكنية[3](يا أبا هريرة).

يمكن القول إجمالا حول هذا الفصل أنَّ التواصل لا يتوقف عند حدود النَّص الظاهر، ولا عند حدود الدلالة ومواضعات اللغة، لأنَّ الإنسان لا يملك اللغة مجرَّدة بل تختزن–هذه اللغة– قدرات روحية حسيَّة، وذوقيَّة وعقلية تمثلية، وخياليَّة، بالإضافة إلى التجارب السابقة من معارف مختزنة المتكلم أو المتلقي.

فهي كفيلة بأن تصل إلى قمة التفاعل التواصلى بل إلى كيفية اشتغالها في الذهن، وهذا ما وقعنا عليه حول طريقة ابن عربي في استعمال اللغة وفهمها، فكان المستوى الثاني عبارة عن تمثّل إجماليّ للكون والمعارف والمعتقدات، وكان المستوى الأوَّل البيانيّ التفصيلي متكفلا بمهمة بيان ما في الداخل عبر **آلة التخاطب** العربي البيانيّ وهو اللسان العربيّ.

[1]–ينظر: مقدمة الفتوحات المكية، ج1، ص55، إذ نقع على أصل من اكتساب المعرفة عند المتصوفة، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهنا مناسبة من إيراد ابن عربي هذا الصحابي بالذات.

[2]–المقاصد اللغوية ودورها في فهم الخطاب الشرعي، ص281.

[3]–استراتيجيات الخطاب، ص275.

الفصل الثاني:
المقاصد الاعتبارية في حجاج الوصايا

تمهيد

المبحث الأول: صدر الحجاج (مرحلة التهيؤ والعرض)

أولا: الشعر والإقناع والحجاج:

ثانيا: العلم والحقيقة والعمل بالمقاصد:

المبحث الثاني: العرض والبسط والمآلات

أولا: العرض والبسط

ثانيا: المآلات والنتائج

تمهيد:

الإطار العام للحجاج في الوصايا:

يتعلَّق جزء كبير من الوصايا بالمصير الإنساني، ما جعل المتصوفة يستدلُّون على هذه الحقائق بضرورة التحقق بها أي العمل بها واستشعار مقاصدها، هذه المقاصد التي لا يمكن في نظرهم أن يظفر بها الإنسان ما لم يمتلك زادا من التقوى وهديا من الطريق النبوي مستعينين بالتأييد الإلهي، فيتحقق الإنسان بكماله وهو الهدف المنشود.

مادامت الوصيَّة هُويَّة إلهيَّة ومصدر ربانيٌّ، كما خَلصنا في الفصل الأول، فهي عين الاستنباط من القرآن الكريم" الصوغ الإلهيُّ للحقيقة الوجوديَّة المطلقة، أنشأه المفرد، وأنزله من السموات العلى(لذلك فهو حدث) غير بشري وعمل غير صناعي، مادام مأتاه الإلهام ومصدره الوارد والعارض، حقائق تقذف في الصدور تبصيرات تنحت في الألواح."[1]

تتألف الوصايا كما مَهَّدنا بداية الفصل السابق من نسقيين خطابيين، نسق إجمالي يأخذ طابعَ الإجمال والإشارة والمجاز، والآخر يتخذ من التفصيل طابع البيان والتوجيه.

من هنا يطرح السؤال الجوهري حول العملية الحجاجية في هذه الوصايا ومقاصدها؛ لماذا ابتدأ ابن عربي وصاياه بمقدمة شعرية إجمالية إشاريَّة؟ ثم كيف نفسّر تلك الاستقلالية في بسط وعرض الوصايا بوصفها تقنية حجاجية لا تأخذ طابع الترتيب والبناء الشكلي كما عهدنا في نصوص أخرى؟

سنكتفي بالتلويح للإجابة بشكل عام تاركين تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا البحث. إذن يروم هذا الطرح إلى فكرة مفادها أنَّ الخصائص العامة للخطاب الحجاجي في الوصايا يتهندس بإستراتيجية تجعله أقرب إلى اللغة الطبيعية بمفهومها اللساني المعاصر، فهي لغة تُقَرّب ولا تُعيّن، تشير في بعض الأحيان ولا تطابق.

[1]– الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل(بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، علي شبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس– الجماهيرية العظمى، ط1، 2010، ص362.

يمكن القول في ظل هذه الرؤية أنَّ الكلام الطبيعي أو الخطاب الطبيعي، لا يخضع للمنطق الصوريّ الذي يقوم الدليل فيه على البناء والترتيب الشكلي،[1] وهذا ما أثبتته الدراسات المعاصرة؛ وهو ضرورة الاعتبار للمضامين والاستعمالات والمواقف التي تحف الكلام فضلا عن المقاصد.

سيكون من التعسُّف أن نطلب ترتيبا شكليا للوصايا إذا وجد هذا المنطق، فضلا عن الخطاب الصوفيّ الذي يحتكم إلى استبصارات ربانيَّة، وَوَاردات قلبيَّة وحجة بالغة مأتاها العلم والمعرفة الغيبيَّة المؤيدة بالتجربة الروحية.

فما هو يا ترى هذا المنطق الحجاجي الاستدلالي في الوصايا؟ وما هي مقاصده الحجاجية ومآلاته؟

[1]–الميزان واللسان، ص227، ويقسّم الباحث طه عبد الرحمن الحجاج إلى ثلاثة أقسام: 1–البرهان: يستند إلى الترتيب الصوري للأدلة، ونتائجه يقينية، 2–الحجاج: يستند إلى القصد، ويتميز به الخطاب الطبيعي، 3–الاستدلال المجازي: وفيه يستدل بظاهر العبارة للوصول إلى باطنها، وهذا الأخير هو ما تمتاز به العبارة الصوفية في الاستدلال، إذ الأول ينصرف على العبارة العلمية، أما الثاني فينصرف إلى القول الطبيعي والوضوح اللفظي، أما الأخير فيؤسس للاستدلال بالعبارة للوصول إلى المقاصد.

المبحث الأول: صدر الحجاج(مرحلة التهيؤ والعرض)

ننطلق في عرضنا لهذا العنصر إلى استشراف الإجابة عن سؤال الإستراتيجية الحجاجيَّة ومنطلقات الاستهلال والعرض للحقائق والقيم والمسلمات في المقدمة الإجمالية الشعرية، الذي يمكن عبره استقصاء المقاصد الحجاجية والغاية من هذا العرض، ومنه يمكن أن نؤسّس لهذه الإجابة بوساطة الإشكالات الآتية:

-هل الشعر خطاب إقناعي حجاجيّ؟ وماهي صفته إذا كانت الإجابة نعم؟

-ما هي القيم والحقائق والوقائع الحجاجية التي يؤسّس لها ابن عربي حتى تكون مقصدا باطنيا لمقصد ظاهر هو الوصايا التفصيليَّة؟

-هل كان توجُّه هذه الوصيَّة الكبرى إلى جمهور صوفي مفرد؟

أولا: الشعر والإقناع والحجاج:

لا يمكن أن نستهلَّ حديثنا عن الشعر، دون أن نستقصي مفهومه عند ابن عربي الصوفيّ، وعلى كل فإنَّ الشعر عنده صار مسلكا للحجاج وقيدا للإقناع صدَّر به خطاب وصاياه، كما أنَّه" لم يعد نشاطا لسانيا بين أنشطة أخرى، ولكنَّه أساس المعنى نفسه، وأساس تأويله للخطاب."[1]

لا بدَّ وأنَّ هذا الاستهلال الشعري يروم إلى مقصد أساس يبني مسلك الحجاج الحسن، بل يبدو أنَّ ابن عربي وضع جوًّا جماليًّا نفسيًّا لتهيئة جمهوره؛ الذي سيتلقى هذا الخطاب والحقائق والقيم.

يدعونا ابن عربي للبحث عن الحجة البالغة في خطاب الوصايا، لذا سيكون من الأهمية بمكان رصد أهم خصائص هذا الشعر عنده، ومن ثم كيف تكون هذه الخصائص منطلقا للاستدلال.

[1]-التداولية والحجاج(مداخل ونصوص)، صابر حباشة، صفحات، ط1، 2008، ص18.

ينتظم الشعر من عناصر مهمة هي العاطفة والخيال والإيقاع:

1-العاطفة Pathos :

إنَّ استحالة إخضاع الخطاب الطبيعي للمنطق الصوري البرهاني يجعل من الممكن أنَّ" لهذا الضرب من الحجاج منطقا خاصا به، وطريقة الاستدلال تستند إلى مجموعة من العمليات الذهنية والأنشطة العرفانية."[1]

هذه العمليات والأنشطة تتمركز حول قدرة الإنسان النفسيَّة والشعوريَّة، والقدرة الإدراكيَّة في تَمثُّل الأشياء ومن ثمَّ التعبير عنها.

إنَّ المبدأ الأساس الذي ينطلق منه ابن عربي-(ممن نضج الفكر الصوفي على يديه واتَّخذَ مستوى التنظير[2] إذ كلٌّ من جاء بعده أخذ المسلك نفسه)-هو مبدأ الحبّ، إذ في البدء كان الحبّ والرحمة، والحديث القدسيّ المشهور الذي يتناقله المتصوفة شاهد دليل على هذه الدعوى" كُنْتُ كنزًا مَخْفًى فَأَحببتُ أَنْ أُعْرَفَ."[3]

لذلك فإنَّ العلم بحقيقة العاطفة والحب الصوفيّ بوصفه تصورا وجوديا إيجاديا في الخلق يخلق هذه الرؤية الشعرية، وينبثق عنه عدَّة أدلَّة تشقُّ طريق الوصيَّة بمفهومها القائم على بثّ الخير للنَّاس، واستمرار تداولها ونفعها. وتنتظم هذه الوجوه للعاطفة في الوصية الشعرية كما يلي:

1-1-عاطفة الترغيب:

لَوْلَا الوَصِيَّةُ كَانَ الخَلْقُ فِي عَمَهٍ وَبِالوَصِيَّة دَامَ المُلْكُ فِي الدُّوَلِ[4]

---

[1]- منزلة العواطف في نظريات الحجاج، حاتم عبيد، مقال من مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر-ديسمبر، 2011ص253. ص245.

[2]- ينظر حول هذه الفكرة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، آمنة بلعلى، ص272-276.

[3]- فلسفة التأويل(دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي)، نصر حامد أبو زيد، ط1، 1983، ص76.

[4]-الوصية رقم 1، من كتاب الوصايا، ص13.

لولا تلك المواعظ والحكم والأحاديث والآيات التوجيهية، لما قام للوصيَّة مكان في الزمان، بل هي عند ابن عربي تأخذ مسارا وجوديًّا، ينفرد بالفطرة الإنسانية وما تحتاجه من منهاج يؤطّرُ حياتها.

1-2-عاطفة الحبّ الإلهي(الجلال والجمال والقرب):

وَانْظُرْ إِلَى الجَبَلِ الرَاسِي عَلَى الجَبَلِ وَقَـدْ رَآهُ فَلَمْ يَبْرَحْ وَلَمْ يـَـزُلِ
لَوْلَا العُلُوُّ الذِي فِي السُّفْلِ مَا سَفِلَتْ وُجُوهُنَا تَطْلُبُ المَرْئِي بِالُمقَلِ
لِذَلِكُمْ شَرَّعَ اللهُ السُّجُودَ لَنَا فَنَشْـهَد الحـَقَّ فِي عُلُـوٍّ وَفِي سُـفُــلِ

إذا كان هناك وصل يقاس بالمسافات والأمكنة؛ فإنَّ المتصوفة ومنهم ابن عربي، يذهبون بالوصل إلى أبعد من ذلك، ناتج عن التجربة الروحيَّة في الحب الإلهيّ، وما يحصل معهم يقاس على سائر النَّاس من علاقات تحققها الوصيَّة الإلهية، فتكون العلاقة الأولى هي الأصل، وما سواها هي الفرع.

1-3-عاطفة الخوف والرجاء:

فَإِنْ دَعَاكَ إِلَى عَيْنٍ تُسَرُّ بِهَا فَلَا تُجِبْهُ وَكَنْ مِنْهُ عَلَى وَجَلِ

وهذا من الابتلاءات التي قد تحدث للصوفي السالك في معارجه الروحية، ودرجات المعرفة والعلم التي يتبوأها، فكان أن يقع في النفس هذا النوع من العاطفة والحال لئلا يتلبَّس له إبليس في خلوته.فإنَّ هذا الذوق والشعور الذي يحدث للمتصوف، لا يقوم عليه دليل عقلي فصحَّ أنَّ المتلبِّس بهذا المقام هو من يدرك هذا النوع من العاطفة.

إنَّ العلم بحقيقة هذه العاطفة كان مسنده العمل بمقصد استدلالي مأتاه المقاصد الإلهية في الخلق كما نوهنا في غير هذا الموضع.

واستدعاء هذه العاطفة هنا يجعل من الممكن أن يتشكل الخطاب على مقاصد غير مغالطة، فالإضمار في هذا الاستدلال، يقوم على شواهد(قرائن)، تكشف المخفي والمطوي

منه تعويلا على الجمهور المتلقي لاستنباطه فيتخلى عن" ذلك التصور الذي يعتبر المغالطة أمرا متجدرا في الحجج القائمة على العاطفة"[1]. فالذي لا يشارك دائرة التصوف لا يظفر بهذا النوع من الذوق، إلاَّ أنَّ الشواهد التي ذكرناها يمكن أن تحدَّ من هذه المسافة وهي قدرة المتلقي في الاستدعاء والفهم أثناء تفاعله مع القصيدة.

ومن هنا أثبت ابن عربي هويَّة الخطاب الحجاجي في هذه المقدمة المجازية، بجعلها تتمركز(تتكوثر)على أكثر من ذات، على حدّ تعبير طه عبد الرحمن، فابن عربي ذاتا ناقلة، وأخرى تعاملية...[2].

2-العاطفة ودليل العمل:

الشعر عند ابن عربي مرتبط بالتجربة الروحية، ومتعلق بقضايا الوجود[3]، وهو من الروح الجمالية؛ فهو علم بمقادير الكلام وأوزان المعاني، ومنه تصبح هذه الرؤية حكمة في وضع المعنى في لفظه المناسب، متى تبيَّن أنَّ الوصية في مدلولها اللساني العربي نبت نافع يتصل أوَّله بآخره، صحَّ أنَّ تقوم على أساس الحب والتعاون والخير، فصار لهذا المعنى ميزانا ونسقا لا يخرج عن تعدد الخطابات بتعدد مقاصدها وتوجيهاتها في الحجة ، لشتى أصناف الخير والسعادة:

فَاعْمَلِ بِهَا وَلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَهَا إنَّ الوَصِيَّةَ حُكْمُ اللهِ فِي الأَزَلِ

تتوج هذه العاطفة بدليل عملي، وهو تطابق المقاصد المشار إليها سابقا بالعمل[4] على مقتضى التوصيات والتوجيهات، ودوما تضفي التجربة الروحية شواهد حية على كل عبارة

---

[1]- منزلة العواطف في نظريات الحجاج، حاتم عبيد ، 2011ص253. يعدّ استدعاء العاطفة في النظريات الحديثة للحجاج من أساليب المغالطة paralogisme والتضليل وقضاء المصالح، وإذعان الجمهور، للوقوف على هذه الفكرة ينظر ص251 وما بعدها.

[2]- القصدية التخاطبية في وصايا ابن عربي، آمنة بلعلى، ص7.

[3]- ينظر: بحوث ومفاهيم حول ابن عربي، ص43.

[4]-ينظر : العمل الديني وتجديد العقل، ص121-128، والعمل مرتبط بالنظر في هذه الوصايا ومرتبط بالتجربة الروحية دليل التفاعل والاستنباط المحرك لكوامن إدراك الإنسان بما فيها وجدانه و تحقيق اطمئنانه.

ولفظة، فاستدلال ابن عربي بعبارة(**حكم الله في الأزل**) إنَّما مؤداه الظفر بحكم الباطن الوجه الحقيقي للوصية.

ومتى صحَّ أنَّ الوصيةَ حكمٌ إلهي صحَّ معه استحالة أن تتعلق بأسباب التظاهر والمغالطات، وهذا دليل وجيه في ضرورة الاعتبار إلى قمة التوجيه ذات المقصد التواصلي وذات قيمة باطنية حكمها العلم بهذا الكلام الإلهي(الاعتقاد المشترك) الذي ينمُّ عن الخير الموجد من الواجد، فإذا كان الجمهور غير معني بدائرة التصوف، فهل تكون هذه العاطفة عاطفة إذعان أو تعطيل؟

3-العاطفة والأحكام القصدية المشتركة:

يقول ابن عربي:

ذَكَّرْتُ قَوَمًا بِمَا أَوْصَى الإِلَهُ بِهِ وَلَيْسَ إِحْدَاثُ أَمْرٍ لِلْوَصِيَّةِ لِي

فَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ مَا قَالُوهُ أَوْ شَرَعُوا مِنَ السُّلُوكِ بِهِمْ فِي أَقْوَمِ السُبُلِ

فَهَدْيُ أَحْمَد عَيْنُ الدِّينِ أَجْمَعِهِ وَمِلَّةُ المُصْطَفَى مِنْ أَنْوَرِ المِلَلِ

تجعل هذه الاستدلالات التي يقيمها ابن عربي مقاصد مشتركة:

3-1-العقد المشترك وهو الوصايا الإلهية.

3-2-مقام التذكير والنفع، يتوج بالعنوان العام للوصايا(وصيَّة حكمية ينتفع..).

3-3-الهدي النبوي.

تتبني هذه المقاصد المشتركة وتتعدد فتشمل المعرفة اللغوية والثقافية والعملية والحوارية.[1]

4- الخيال:(الممكن وتوسيع المدركات)

تأخذ خاصية الخيال المتعلقة بالشعر مسلكا آخر في الحجاج؛ إذ يصعب تقدير درجة التسليم به، اللَّهمَّ إلاَّ إذا كانت هذه المسلَّمات والقيم تبني اعتقادا يأخذ الحكم فيه جميع الأطراف ويؤدي إلى التسليم.

[1]-يراجع تفاصيل هذه المسألة: اللسان والميزان، ص151-152.

4-1-الخيال ومسلك الإقناع Ouvriér de peruasion:

" لقد بات معروفا لدينا أنَّ تحصيل الطاعة وإدراك مرتبة الإقناع، مآلات ومحاصيل تختلف بها الآلات وتتباين الوسائط باختلاف النسق العقدي الذي يؤازر تلك المآلات ويشدُّ تلك المقاصد"[1]

هذا المسلك عند ابن عربي(الخيال) مآله الظفر بحكمة الباطن، ولا يمكن الظفر بها إلا إذا تحرك هذا النوع من الإدراك، يجعل من الممكن التحقق بالحديث الشريف ومقاصده" أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك".[2]

يقول ابن عربي:

إلَى الطَبيعَةِ لِلْنَفْسِ النَّزِيهَةِ لِلْعَقْلِ الْمُقيَّــدِ بِالأعْــرَاضِ وَالعِــلَلِ

إلَى العَمَـاءِ الذِي مَا فـَوْقَهُ نـَفَسٌ مِنْهُ إلَى المَنْزِلِ المَنْعُوتِ بِالأَزَلِ

من سمة العماء (الخيال) عند ابن عربي أنَّه لا موجود ولا معدوم ولا مجهول ولا ومنفي ولا مثبت ، إذ هو متعلق بالخلق الإيجادي وعالم الغيب، هنا يمدح ابن عربي الخيال قائلا " فما أوسع الخيال، وفيها يظهر وجود المحال، بل لا يظهر فيها على التحقيق إلاَّ وجود المحال"[3] وهذا ما يجعل" مخاطبة الخيال وملاطفة العاطفة هما المسلكان لتمكين الحقائق، وإثبات الوقائع التي أفرزها الفعل التأويلي القائم على الغيبة العقلية وحضرة الواردات القلبية."[4]

والخيال عنده هو بيت الممكنات تسمو بالآخر وتنقله من" حقيقة الواقع إلى فضاء الخيال، انطلاقا من عمليات ذهنية تقوم على الفهم والتأويل"[5]، وهذه العمليات عند ابن عربي

---

[1]-الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص353.

[2]- سبق تخريجه في الفصل الأول.

[3]-الفتوحات المكية، ج312/2. للوقوف على هذه الآلية في التراث العربي ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل(مرجع سابق).

[4]-الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص375.

[5]- عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير، ص131.

تتعدّد، إذ الخيال يأخذ أصنافا كثيرة، وبتفسيرات روحية ربَّما لا يسع هذه الورقة بسطها،إلا أنَّ ما يمكن قوله إجمالا أنَّ الخيال يلعب دور الوسيط الناقل[1] لمعطيات الحواس إلى القوة المصورة في الدماغ التي تتكفَّل بالخلق والإبداع.

ثانيا: العلم والحقيقة والعمل بالمقاصد:

يتناول هذا العنصر عرض ابن عربي وبسطه للحقائق والقيم والمسلمات، التي تفتح باب الأسرار ويذعن لها الجمهور الصوفي (السالك المريد)، وهذا النوع من الاستدلال هو محور كل الوصايا وهويتها وباطنها، لأنه يحقّق الهدف والغاية من العلم بهذه الحقائق وبثّها للجمهور.

وتتأسس المقاطع الموالية من القصيدة على إجمال إشاريّ لهذه الحقائق والقيم، والمسلمات لبناء الاستدلال.

1-القيم les valeurs:

من أوَّل القصيدة إلى نهايتها، يمثل ابن عربي لقيمتين مهمتين هما(العلم والعمل)، وهما المقصدان الباطنيَّان لباقي الوصايا، إذ نراه يستدل لبلوغ هذه الغاية بوساطة الاعتبار و البحث عن الأسرار في الوصايا ذات المصدر الربانيّ:

فَاعْمَلْ بِهَا وَلَا تُهْمِلْ طَرِيقَتَهَا إنَّ الوَصِيَّةَ حُكْمُ اللهِ فِي الأَزَلِ

وتتعلق الوصيَّةُ عند ابن عربي بجزء كبير منها بالعالم الغيبي، المرتبط بالخلق والإيجاد والفهم والإدراك[2]، لكنَّها في العموم تتمثَّل في حقيقة العلم بالشيء والعمل بغايته الباطنية أو على حد مصطلح طه عبد الرحمن(الحجة البالغة)[3] وهي **العَالِمُ العَامِلُ بِعِلمِهِ**، وهذان الأخيران-(العلم بالأوامر والنواهي مثلا، أو العلم بالتقوى، ثمَّ البحث عن باطنها

[1]- للوقوف على فائدة الشرح لهذا العنصر ينظر: فلسفة التأويل، ص53.

[2]- يقول ابن عربي لولا الكلام لكنَّا في عدم، ينظر: الأفق التداولي، ص131-140، فالإنشاء خَلْقٌ(كُنْ).

[3]-اللسان والميزان، ص229-232.

ومقاصدها وأسرارها)-يتوقف سيرهما على التأييد الإلهي، والتجربة التفاعلية والروحية مع الوصايا(ذات المصدر القرآني).

فكان لزاما على المتصوف أن يجتهد بالطاعات، والارتقاء الروحي ليبلغ الكمال العقلي، فتزدوج طلب المعرفة بمضامين الوصيَّة وطلب الاشتغال بقيمتها، كحقائق الذكر أو التقوى، أو المال أو التواضع.....ويمكن أن نستأنس بهذا المخطَّط العام:

العلم ⟵ العمل ⟵ المعرفة الغيبية (اكتمال العقل)

وعند اكتمال العقل[1]، يكتمل الهدف المنشود والمقصد الشريف، وهنا نفسّر التناقض الذي قال به الكثير؛ كيف يلجأ ابن عربي إلى الإشارة والرمز، والجواب أنَّ القيمة تتميَّز بقمَّة التفاعل مع الذكر مثلا، إذ يصبح العامل بها في مرتبة عبودية الاختيار ويصير مستشعرا بالذكر ومتحقّقا به، فيتلبّس بأحوال ومقامات تجعل من الصعب أن تحتويها العبارة، فلا سبيل إلَّا الإشارة تقرِّب ولا تطابق [2]:

قصد العلم بالحقائق(مستوى العبارة)	قصد العلم بالحقائق وقصد العمل به (مستوى المجاز)
- العبارة في الوصيَّة تعبير عن المقصود. -العبارة في الوصية تقتصر على الظاهر.	- العبارة في الوصيَّة تعبير عن المقصد؛ الإشاري(المعنى الباطني). -ارتباط المقصد بالغاية(وهي عبادة الله تعالى) -قصد العمل هي القيمة(الأسرار والمقاصد). -المجاز هو التعبير عن المقصد في الوصيَّة

فالقوة العَمليَّة تتوجه إلى إيجاد الصور، والقوة العلمية تتضمن المعرفة التي تعمل من خلالها القوة العملية[3]، وهذا تفسير روحي عند ابن عربي مرتبط بحقائق الوجود والمعرفة

[1]-يشير طه عبد الرحمن في كتابه العمل الديني وتجديد العقل إلى قول مأثور" العقل الكامل من عقل عن ربّه أمره ونهيه".

[2]-ينظر: الميزان واللسان، ص230-235.

[3]-ينظر: فلسفة التأويل، ص107، والفتوحات المكية، ج140/1، والصور على صنفين: ظاهرة حسية كالأجرام والأكوان، ومعنوية باطنة كالمعارف والعلوم والإرادات.

والخلق، فالكلام أمر ونهي وموعظة،وأحيانا قصص وحكم كلٌّ هذا علم يتوقف التحقُّق به دعم قيمة العمل.

وهنا يدعونا ابن عربي لقمة التمثيل لهذه القيمة التي يربطها بالحقائق البيولوجية الكونية:

إنَّا إِنَاثٌ لِمَا فِيـنَا يُوَلِّـــــــدُهُ فَلْنَحْمَدِ اللهَ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ رَجُلِ

إنَّ الرِّجَالَ الذيّنَ العُرْفُ عَيَّنَهُمْ هُمْ الإِنَاثُ وُهُـمْ سُؤْلِي وَهُمْ أَمَـلِي

فمصطلح الرَّجُل هنا دلالة مرتبة وليست دلالة ذكورة،أما الأنثى فهي استعارة على العمل، والخلق والفهم، والرّجال لا يحصى عددهم عند ابن عربي(الأولياء، الأنبياء، الصالحون، المساكين...)، وهم الورثة لهذه الوصايا، وهم بمثابة الأب الروحي لمن بعدهم، وهم من وَعَوا الأمر الإلهي، فصار علمهم ملازما لعَمَلهم وأدركوا الحكمةَ والسرَّ من تلك الحقائق التي هي السبيل الموصل إلى الحقِّ.

لذلك يعتبر الحجاج الذي يستهدف الاعتقاد بما فيها هذه القيم رهانا صعبا إذ يصعب التسليم بها وإذعان الآخر وقبوله الاقتناع؛ وعليه كان ابن عربي مدركا لذا الوضع، فوضع المستدلَّ له في واجهة خطابه، وعبَّر عن عدم ارتفاع صوته في الجدال، وكأنَّه كان مستشعرا لفهم الآية ﴿ ﴾ وهنا قَصدٌ في الحوار والجدال:[1]

ذَكَّرْتُ قَوْمًا بِمَا أَوْصَى الإِلَهُ بِهِ وَلَيسَ إِحْدَاثُ أَمْرٍ فِي الوَصِيَّةِ لِي

فَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ مَا قَالُوهُ أَوْ شَرَعُوا مِـنَ السُّلُـوكِ بِهِمْ فِي أَقْوَمِ السُـــبُلِ

[1]– سورة لقمان، الآية19.

فيجتمع صدق الخبر هنا، ويجتمع معه المصدر الإلهي للوصايا، ليتوج بعد ذلك بالانتهاض للعمل؛ من هنا تنشأ مطابقة القول للفعل ويحقّق العمل الحجاجي مقصده[1].

2-الحقائق Les réalités:

اتَّسع مفهوم الحقائق في الحجاجيَّات المعاصرة ليشمل تلك الإشكاليات المطروحة والمسائل الغامضة التي تحتاج إلى تأويل.

وقد وضع ابن عربي هذه المنطلقات وصدَّر بها حجاجه إذ "إنَّ طريقة عرض المقدمات تتجاوز مرتبة الشكل الظاهر، لتغدو هي الأخرى اختزالا مرَمَّزا، لموقف ابن عربي من علامات الكون ومحدثات الوجود، من جهة كونها بوَّابات على السرّ الحقيقي ومنافذ على المصدر الجوهراني"[2] وهذه المنافذ لا يمكن بحال من الأحوال أن تنفصل عن الاعتقاد المشترك، وهي حكمة القرآن الكريم، والسنة النبوية.

بعدما صدَّر ابن عربي استدلاله على قيمة العلم والعمل، بالإضافة للنموذج الإلهي للوصايا؛ يعرض حقائق أخرى نعدُّها من الهرميَّات والمُسلَّمات التي تنحصر في الكثير من وجوهها على الجمهور الصوفيّ السالك، ولنا أن نختصر هذه الحقائق كالتالي:

2-1-الحقيقة المحمدية.[3]

2-2-العروج الروحي والكشف.

2-3-توريث المعرفة وتداولها.

تتَّخذ الحقيقة المحمديَّة عند ابن عربي صورة **(الإنسان الكامل)**؛ أي المعرفة المطلقة التي يبحث عنها المتصوفة، والعروج الروحي[1] والكشف هو وسيلة للوصول إلى هذه الغاية،

[1]- للوقوف على هذه الفائدة ينظر: اللسان والميزان، ص237.

[2]-الحجاج والحقيقة وآفاق التاويل، ص381.

[3]-الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل أو العقل الأول هي مترادفات عند ابن عربي، "فأوَّل ما أنشأ في ذلك قال: لله نذير يعلّمهم أنَّه البشير، أراد بالنذير والبشير الحقيقة المحمدية الكلية...." ينظر: شرح مشكلات الفتوحات المكية، ابن عربي والجيلي، يوسف زيدان، دار الأمير، القاهرة-مصر، ط1، 1994، ص73.

ينصح ابن عربي المتلقي بالأخذ عن مركز هذه المعرفة التي تستند إلى شروط للارتقاء إلى مراتب هذه المعرفة، ليحوز التجلي الإلهيّ المناسب:

فَـــخُـــــذْ بِسِرِّكَ عَنْهُ مِنْ مَرَاكِــزِهِ عُلُوًّا إِلَى القَمَرِ الأَعْلَى إِلَى زُحَلِ

إلى آخر العروج الروحي وهي مرحلة الكشف:

حَتَى تَرَى المَنْظَرَ الأَعْلَى وَلَيْسَ لَهُ سِـوَاكَ مَجـلًـى فَلَا تَبـرَحْ وَلَاتَـزُلِ

وهذا التدرج الذي يعرضه ابن عربي بوصفه وقائع تجعل" العلاقة بين المريد ومحمد صلى الله عليه وسلم، قائمة على الجدل المتفاعل، وحركة لايثنيها عن الاتصال بموضوع رغبتها."[2]

لذلك فإنَّ ابن عربي يروم إلى" نحت معالم (الإنسان الكامل)الذي تتوحَّدُ مظانُّه الإدراكية حسية كانت أم مجرَّدة"[3] ولن يتم ذلك إلاّ برحلة العروج ثمَّ الكشف؛ فينقدح إثر هذه التجربة نور البصر في القلب، فيحصل الاتّصال وينال المقام.

قد يكون من الصعب على الجمهور غير الصوفي التحقق من هذه الوقائع كما أسلفنا ذلك أنَّ" الاستدلال يقودنا من الأسباب إلى النتائج"[4] وقد تكون الأسباب عميقة مثلما هو الحال هنا؛ تختزل الزمن واللحظة، وهذا ما تمتاز به العبارة الصوفية، فماهي صورة البناء التي ترتّب هذه الاستدلالات؟ وما هي الآلة التي تتكفل بغاية العروج والكشف؟

3-المواضع والسلم الحجاجي Les topiques / Echelle argumentive :

---

[1]-يتميز العروج الروحي عند المتصوفة عن العروج النبوي، في كون الثاني عروج حقيقي(إسراء الجسم واختراق الأفلاك حسا)، أما الأول فعروجه روحي معنى لا حسًا، لأنَّ معارج الأولياء معارج أرواح ورؤية بصيرة، ينظر: فلسفة التأويل، ص206، وينظر: الفتوحات المكية، ج343/3.

[2]-الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص380.

[3]-الحجاج والحقيقة، ص356، وقد خصّ الله آدم ب: القوة المصوّرة والمفكرة والعاقلة" حتى تصل إلى المنافع المعنوية والحسيَّة" ينظر: الأفق التداولي، ص137، وينظر: الفتوحات المكية، ج1، ص191-192.

[4]- عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير، ص154.

لكلّ دليل عبارة عملية كما نوَّه طه عبد الرحمن، ولكلّ إضمار شاهد يقوم مقام الحذف والطيّ، لكنَّ اللافت هو تدَّرج الخطاب في رحلة هذه القصيدة إذ "كانت البداية تلطيفا وتسبيحا، ثمَّ غدت تخصيصا وتفريدا بعدها راحت ترشيحا ورفدا ثمَّ استقرَّت انكشافا وسرّا وخلودا في عالم أهل الكشف حفظوا القواعد وأدُّوا الأدوار."[1]

فلكلّ مقام يجتازه السالك إلاّ ويحوز معرفة وتجلّ إلهيّ" إذ إنَّ هذه السلميَّة تحاكي المسار الذي يتابعه السالك يرتقي ويعرج."[2]

واللافت كذلك أنَّ هذا العنصر يفسّر بوضوح الخاصية التداولية والمعرفية للغة الطبيعية؛ هنا يضعنا ابن عربي في أمام كلّ مقام معرفة معينة يمتلكها الصوفي، فيتحقق أنَّ لكل تجربة مقال يعبّرُ عنه، ويصحُّ من وجوه أخرى أنَّ تجارب النفس الإنسانية قد تختزل الزمن والمكان.

فعلى حدّ تعبير طه عبد الرحمن بتسميته الحجة الحية بالاعتبار، وصيغته:

لا تقبل قولا حتى تظفر بِحِكْمَتِهِ فَتَزْدَادَ عَقْلاً

فقد يعيش الصوفي أحوالا يصعب التعبير عنها باللغة فنحتاج إلى دراسة العمليات الذهنية حتى ندرك تلك التجربة والفهم القائم عليها، لهذا كان من الصعب أن ندخل الخطاب الصوفي من وجهة الدلالة الظاهرة؛ إذ يتطلب الأمر أن تتكافل المعطيات التداولية والمعرفية النفسية لفكّ ذلك الغموض، وعليه سيتجاوز ترتيب الوقائع الترتيب القائم على بنية اللغة المنطقية[3] وما تؤسسه من روابط تدرجيَّة:

---

[1]–الحقيقة والحجاج، ص384، وينظر : الرسالة القشيرية، للقشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمد بن الشريف، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، دط، 1989،ص89–350.

[2]–المرجع السابق، ص383، وللوقوف على الفائدة التداولية للسلم الحجاجي ينظر: مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكونبروديكرو، رشيد الراضي، مقال من مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر–ديسمبر، 2011، ص103–108، وينظر المجلة نفسها والعدد نفسه: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، ص67–110.

[3]– ينظر أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص232–233، وينظر: اللسان والميزان، ص276.

سلَّمُ الارتقاء:

4-النتيجة(الكشف وبلوغ الغاية)
3-معرفة3(القرب)
2-معرفة2(تجاوز الأفلاك)
1-معرفة1(الحقيقة المحمدية)

سلَّمُ الامتثال لكلام الله(الوصايا):

4-النتيجة(الرؤية الكشفية-الخلق والإبداع لكلام الوصايا المتواتر)
3- درجة القرب والحب
2- درجة العلم والعمل
1-العلم بالوصايا من مصدرها

4-الآلة الاعتبارية(آلة الاستدلال):

يمثل القلب سلطان المعرفة الصوفيَّة، ومنزل التجليات الإلهية، وتحقيق العلوم الباطنية، والأسرار التي لا تدرك إلا باجتياز مقامات العروج الروحي:

-المعرفة متوقفة على المرتبة الكونية التي يحوزها العارف:(الأفلاك والسموات).
-العلم والمعرفة متوقف على الكشف: محلُّها القلب؛ إذ الكشف هو التحقق بباطن الوجود، وباطن الشريعة، وهو كما قال الطوسي:"بيان ما يستتر عنه الفهم، فيكشف عنه العبد كأنَّه يراه رأي العين".[1]

وابن عربي لم يغيّب العقل كلَّه:

إلَى الطَبيعَةِ لِلْنَفْسِ النَزِيهَةِ لِلْعَقْلِ المُــقَيَّـــــدِ بِالأعْـرَاضِ وَالعِلَلِ

[1]-اللمع، الطوسي، ص249. نقلا عن آليات التواصل عند ابن عربي، ص80، وينظر المرجع نفسه بطبعة أخرى، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي، دار الكتاب الحديث، مصر، 1960، عن مراتب الكشف واليقين ص102

فهذا نوع من إرضاء العقل، من وجوه التجربة وهو" تقريب المسافة"[1] بين المتصوفة وأهل الظاهر، إذ يمثّل العقل محلاً صقيلا من القلب ويسمَّى(النفس الناطقة)، وحقيقة العقل عند المتصوفة تتوقف وظيفته في الاستدلال؛ أي الربط بين المعطيات التي تأتي من الحواس.

و فيما يلي مخطط عام لمنطق الاستدلال والحجاج في وصايا ابن عربي:

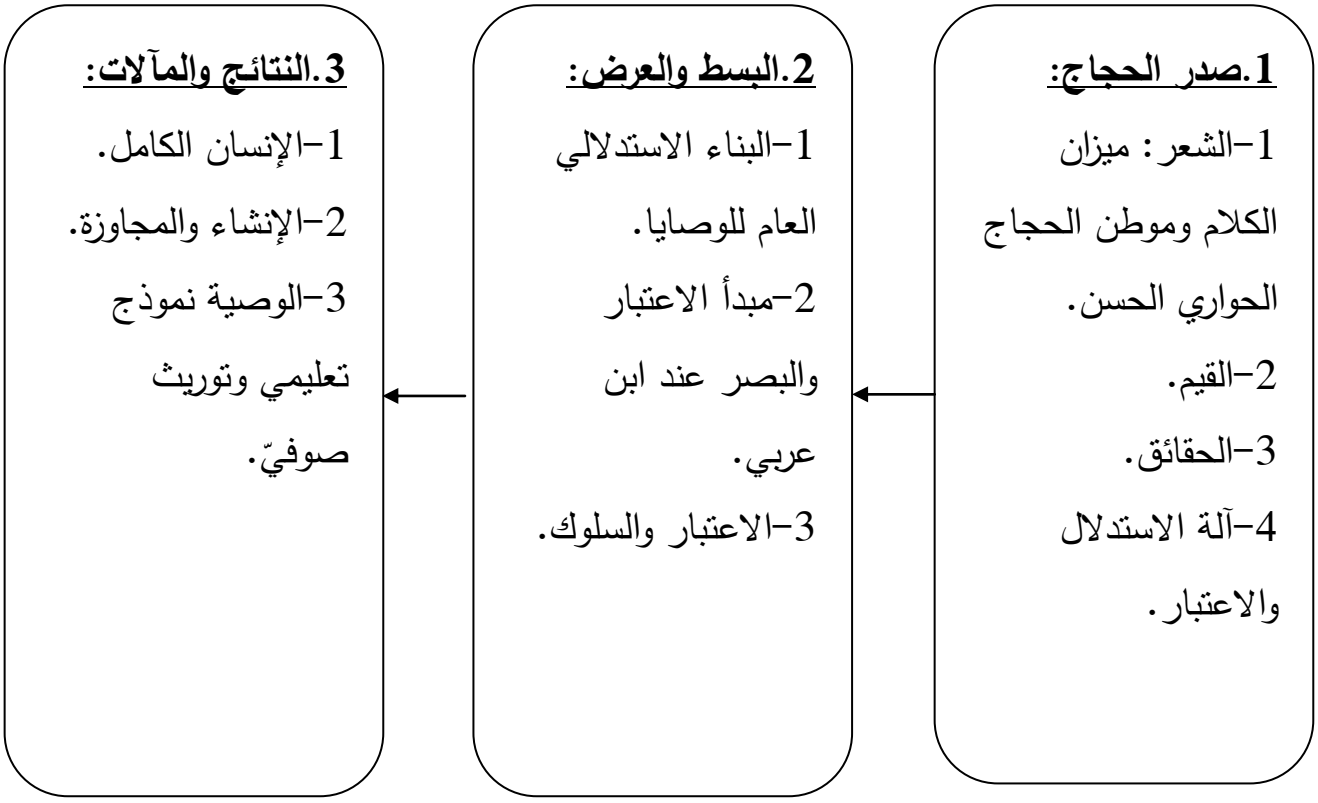

[1]-عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير، ص127،وص204.

المبحث الثاني: العرض والبسط والمآلات

أولا: العرض والبسط

1-البناء الاستدلالي العام للوصايا:

لا يستطيع العقل أن يستقلَّ بوظيفة واحدة، بل تتجاذب معه مدارك أخرى، تهيئ للإنسان أن يشغّل ذوقه وحسَّه، وخياله، هذه كلها تتلخص في كلمة واحدة هي(الاعتبار والحجة البالغة)[1]، كنَّا قد تناولنا طرفا منها في المبحث السابق؛ ملخصها العلم بالحقائق والعمل بالمقاصد، وهذه أعلى مرتبة في الحجاج عند المتصوفة، وعليه جاءت معظم الوصايا محققة هذا المقصد، التوجه نحو العلم والعمل به، ومراقبة الصدق، على غرار إستراتيجية التقويم بدل التنظير، والإنجاز بدل الوصف.

على كلّ فإنَّ الهدف من كل هذا هو بناء(الإنسان الكامل) المتحقق في الحقيقة المحمديَّة" إنَّ قدرة الصوفي العارف الاتّصال بهذه الحقيقة المحمدية في إطارها اللامحدود زمانيًّا ومكانيًّا وذلك من خلال معراجه الصوفي"[2].

[1]– اللسان والميزان، ص 232، وينظر: تجديد المنهج، ص56.

[2]–فلسفة التأويل، ص233.

يجرُّنا هذا إلى القول بأنَّ الوصايا تبني أولا الروح الإنسانية لتصل إلى كمالها، فيصحَّ أنَّ ابن عربي يجعل الوصايا لا تأخذ البناء الترتيبي والاستدلال المنطقي، إذ التركيز على: المضمون بدل الشكل، والمقصد بدل الظاهر.

فإذا استقرينا أنَّ صدر الحجاج قد أعطى بطاقة عامة حول الطريقة التي سيبلغ بها ابن عربي مقاصده، وعلى المنطلقات الحجاجية والأشكال الخطابية فإنَّ ما يمكن قوله إجمالا أنَّ الوصايا قد اتَّخذت منطقا خاصا يخدم الروح إذ يبنيها، لكن بصورة أقرب إلى الإنجازية وبما تتميَّز به آلة البيان؛ وفيما يلي مخطَّط عام يوضح هذا الغرض:

حكمة القرآن	حكمة الحديث	المواعظ والأمثال والحكم	القصص والكرامات	الرؤى المنامية
-تخاطب الاعتقاد المشترك -حجة بالغة ودليل قطعي -الصدق المطلق	-تخاطب الاعتقاد المشترك -حجة بالغة ودليل قطعي -الصدق المطلق	-تخاطب المدارك -الترغيب -تأسيس لواقع	-التحقق بباطن الوجود من الظاهر	-جزءمن وسائل المعرفة الروحيَّة -الذوق الصوفيّ -إلهام

وينطبق عليها قول الأستاذ طه عبد الرحمن[1]، في أنَّ هذا النوع من النماذج تستند إلى منطق خاص في الاستدلال؛ لا يستطيع البرهان الصوري، والنظرة الشكلية أن يحصّل

[1]- انطلقنا من الحكم الذي قال به طه عبد الرحمن في دعوى اعتبار الأدبيات (مواعظ وحكم وأمثال وغيرها، أنَّها لا تتبني على الاستدلال المنطقي لأنَّها مستقلة)، فبررناه في الوصايا، وحصلنا على نتائج مهمة، ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث، ص398-400.

طبيعته، ويمكن أن نجمل المقاصد التداولية لهذه الأنماط الحجاجية بعرض شاهد من الوصايا حتى يتَّضح الحال:

1-1-الحكمة قول شامل لكامل هذه النماذج الخطابية:لا تتحدَّد الحكمة بكونها قولا جامعا؛ أو أنَّها القول الذي قلَّ مبناه وكثر معناه، بل إنَّها تتجاوز هذه التعريف بأنَّها الحكمة في وضع الشيء في مكانه، وقصد التوجيه والتبليغ وقصد التغيير، من هنا كانت المواعظ والحكم والأمثال مرتبة بحسب المقامات والأحوال، هذا ما جعل الوصايا لا تأخذ بناء صوريا شكليا ، بل أخذت البناء الروحي، والتوسل بوسائل الإقناع التي يذعن لها الجمهور، ومن أبرز أساليب الإقناع التي تقدّمها لنا الوصايا" وصيَّة بعنوان[1] " الطريق إلى الله" وهي قصة تحكي حوارا بين عارف من المسلمين وراهب في صومعة،ويمكن أن نقسم المشاهد كالتالي:

1-1-1- الحوار بين عارف من المسلمين وراهب في الصومعة، موضوعه المعاملة مع الله.

1-1-2- أدّلة الراهب: المعاملة قاسية بسبب(الكدّ للأبدان، صيام النهار وقيام الليل، خشونة العيش، بعد الطريق وكثرة الشكوك والحيرة والخوف من النَّاس...).

1-1-3-أدّلة العارف: المعاملة مع الله خير معاملة(ربُّنا أعطانا سلفا كثيرا قبل العمل، ومواهب لا تحصى فنون أنواعها من النعم والإحسان والإفضال قبل المعاملة، فنحن ليلنا ونهارنا في أنواع نعمة وفنون من آلائه...).

1-1-4-تعجُّب الراهب: كيف خصصتم بهذه والمعاملة والربُّ واحد؟

1-1-5-الإجابة: النعمة والإفضال فعموم للجميع؛ ولكن خصصنا ب(حسن الإعتقاد، وصحة الرأي، والإقرار بالحق،...اسمع ما أقوله، وافهم ما تسمع، واعقل ما تفهم: إنَّ الله جلَّ

[1]-الوصية رقم 90، من كتاب الوصايا ص 208.

ثناؤه لمَّا خلق الإنسان من طين ولم يكن شيئا مذكورا....(نعمة الإيجاد والإمداد والإحسان)[1]...).

1-1-6-تعجُّب الراهب من بيان الوصيَّة(جزاك الله خيرا من واعظ ما أبلغه، ومن ذاكر إحسان ما أرفقه، ومن هادي رشد ما أبصره، ومن طبيب رفيق ما أحذقه ومن أخ ناصح ما أشفقه).

يسمَّى هذا النوع من الاستدلال ب" **التقسيم والتجزئة**[2] Division "، ويمكن أن نمثّل لهذا النوع الذي استعمله العارف لإقناع الراهب بالمخطط التالي:

الأطروحة(المقدّمة)Thése : المعاملة مع الله تعالى

-الحجة1: صحّة الاعتقاد وصدق القول.

-الحجة2: أطوار الخلق، نعم الإيجاد، نعم الإمداد، نعم الإحسان.

-الحجة3:ترغيب في نعيم الآخرة، وزهد في الدنيا.

النتيجة Synthèse: تصحيح المفاهيم، وإثبات الاعتقاد الصحيح بنفي الاعتقاد الخاطئ.

وصحب هذا النوع من الاستدلال نوعا من التعاون والمحاورة[3] التي استعملها العارف المسلم، فالإنسان" لا يتواصل لأنَّ كل شيء بالنسبة إليه محطَّ اختلاف مع الآخر، أو لأنَّ كل شيء جليّ وواضح وإنَّما يتواصل ليجيب عن الأسئلة الغامضة"[4] فكان العارف مدركا لهذه الهوَّة، وأزال الحيرة عن الراهب، وأثبت الاعتقاد الصحيح وهذا قمَّة التفاعل وبلوغ المقصد؛ وهذا ما كان يسعى ابن عربي لبيانه في المقدمة:

---

[1]- الوصية تتألف من أنواع من الفنون البلاغية، وتحوي من أسرار الخلق ونعم العلم والملك والنعيم ما لا يسع هذه الورقة بسطه، واكتفينا بذكر ما هو عام وما يخدم الفكرة.

[2]- التجزئة هي ذكر أجزاء الموضوع المراد بيانه ثم تفصيله ثمَّ الحكم عليه بالنفي أو الإثبات بإبراز جوانب الصحّة فيه ونصب الحجة على فساده إن وجد. ينظر: المتلقي في الخطاب القرآني، ص 270-281، وينظر الجدل القرآن الكريم، ص181، نقلا عن المرجع السابق، وينظر أيضا: أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص331.

[3]- سمّاها طه عبد الرحمن بنموذج الحجَّة الاتصالية، وفيها يزدوج السياق والتقاصد.

[4]- عندما نتواصل نغيّر، ص179.

فَهَدْيُ أَحْمَد عَيْنُ الدِّينِ أَجْمِـــعِهِ وَمِلَّةُ المُصْطَفَى مِنْ أنْوَرِ المِلَلِ

لَمْ تَطْمِسِ العَـيْنَ بَلْ أَعْطَتْهُ قُوَّتَهَا حَتَّى يُقِيمَ الذِّينَ فِيهِ مِنَ المِيَلِ

وهنا نجد في حوار القصة تدخل ذات ابن عربي بشكل ضمني، وذلك واضح في مقصد ذكر هذه الوصية.

2-مبدأ الاعتبار والبصر عند ابن عربي:

2-1-الاعتبار:

الجزء الثاني من الوصايا بمثابة البيان والتفصيل للقيم والحقائق التي خلصنا منها في المقدمة الإجمالية، إذ العلم مرتبط بالعمل، والمعرفة العلمية مرتبطة بتأييد الله، والتجربة الروحية، والتحقق من ظاهر الأشياء بالنفوذ من ظاهرها إلى باطنها، وهي القيمة من المواعظ والحكم، يقول ابن عربي[1]:" **وعليك بالحياء فإنَّ الله حييٌّ والحياء من الإيمان، والحياء كلَّه خير...والحياء معناه الترك قال الله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي" يقول إنَّ الله لا يترك" أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا" في الصغر لقول من ضلَّ بهذا المثل من المشركين الذين تكلموا فيه فإنَّ الله تعالى قال(يضلُّ به)أي بهذا المثل" كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ "[2]... والحيرة ضلالة...وذلك لجهلهم بالأمور فإنَّه فإنَّ لا فرق بين أعظم المخلوقات-وهو العرش المحيط- وبين الذرة في الخلق والبعوضة وإخراجها من العدم...**"

---

[1]-الوصية رقم 41، من كتاب الوصايا، ص84-83،الحديث في صحيح البخاري-الإيمان"24"، وصحيح مسلم-الإيمان"36"، وسنن الترمذي-الإيمان"2615"، وسنن النسائي-الإيمان وشرائعه"5033"، وسنن أبي داود-الأدب"4795"، ومسند أحمد-"2/147"، ينظر: موقع جامع السنة وشروحها؛ 2017/05/25.

[2]-سورة البقرة، الآية 26.

يعدُّ المثل بنية مؤسسة للواقع، إذ الاستدلال بوساطة المثل يقوم على" استحضار الأشياء المحسوسة، التي يستطيع الجمهور إدراكها في ذاتها، فيكون ذلك سبيلا لإدراكه في ذاته من أمور غيبية"[1] وهذا الفهم بالاعتبار قد خلص إليه ابن عربي:

2-1-1-لا فرق بين العرش المحيط أعظم المخلوقات(العرش المحيط)ن وبين أصغر مخلوقات الله(البعوضة).

2-1-2-البعوضة أعظم في الدلالة على قدرة خالقها من الفيل في صورته.

2-1-3-الحكمة في خلق البعوضة أتمُّ وأنفذ.

2-1-4-تفطَّن ابن عربي للقسم الضمني من الصورة[2] الذي يضربه المثل القرآني، فتوجَّه ابن عربي بتدبره ونظره لهذا المثل، طالبا من المتلقي أن يزن الحقائق بالحكمة خاصة قوة التمثيل ويوجه نظره إلى أبسط المخلوقات في قدرة الله تعالى، وقد يرد كثيرا هذا الاعتبار في القرآن لتوجيه زوايا الرؤية"إمَّا أن تتماثل أو تتباين، وهي في تماثلها أو تباينها، إمَّا أن توجد على مستوى واحد، أو على مستويين اثنيين، وإن وجدت على مستويين اتّجهت اتّجاهات ثلاثة: إمَّا من الأعلى إلى الأدنى، أو من الأدنى إلى الأعلى أو من المساوي إلى المساوي".[3]

وقد كان الاعتبار عند أهل التصوف وأهل النظر، يقوم على أساس الاستشعار وبلوغ المقاصد من هذه الأمثال والظواهر، وربطها بالله تعالى، وهو التوجه الأول "العلم بالموجودات إلى العلم بمُوجدها،ثمَّ من العلم بالمُوجد إلى العلم بالموجودات..."[4]، فهذا

---

[1]-حجاج التمثيل في القرآن الكريم(الاعتبار-التحول-التقابل)،عبد الرحيم وهابي، مقال من مجلة التداوليات وتحليل الخطاب، عدد 4،ربيع 2014، ص86-87.

[2]-ينظر الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط1، 2001، ص450 وما بعدها.

[3]-اللسان والميزان، ص290.

[4]- العمل الديني وتجديد العقل، ص157.

الاعتبار يخاطب العقل كذلك فكيف يجهل المشركون قدرة الله في هذه البعوضة التي أخرجت من العدم.

فإنَّ لفت القرآن لمثل هذا الاعتبار، هو تعظيم للخالق" ولهذا لم يصف الله نفسه بالحياء في ذلك لما فيها من الدلالة على التعظيم".

سمَّى الجاحظ وابن وهب هذا المصطلح بالبيان[1]، وبيَّن له وظيفتين: وظيفة معرفية(الاعتبار أو النُّصبة)، والأخرى إقناعية، فالكون إن لم يجبك حوارا، أجابك اعتبارا.

وابن عربي في هذا الاعتبار، أو المتصوفة بشكل عام" باعتبارهم قرَّاء للنَّص القرآني حين أقبلوا على فهمه كانت تجربتهم هي التي حدَّدت المسلمة والمقصد السابق على الفهم، وهم بذلك يقوّضون حاسَّة الأثر والمأثور التي كان يسعى المسلمون في كلّ منحى من مناحي تفاعلهم إلى تثبيتها بإحالة المعنى إلى مصدر موثوق..."[2].

ممَّا جاء في تفسير هذه الآية:" **وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فاذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله تعالى عند ذلك...**"[3]

يبدو الفرق واضحا من فهم ابن عربي، وفهم التفسير بالمأثور؛ فالمتصوف عند تلقي الخطاب القرآني يترجم الأحوال والمعارف التي ينطق بها، فهو متوجه دوما إلى الله، ومشتغل به وهذا عين الفهم.

2-2-الاعتبار والسلوك:

[1]-هذا المفهوم طبَّقه الجاحظ في كتابه الحيوان، والمفهوم المعرفي للبيان هو النظر والتأمل في الكون وأسراه وغرائبه، ينظر: البلاغة العربية(أصولها وامتداداته)،محمد العمري،أفريقيا الشرق، بيروت-لبنان، ص195.

[2]-تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص291.

[3]- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار الحديث، القاهرة-مصر، 2011، ص84.

لمَّا بيَّن ابن عربي هذا المثل ربطه بالسلوك وهو الحياء، ولمَّا كان المثل مشعرا بالسلوك الأخلاقي " فإنَّه يصرف عن المعنى الأخلاقي المنقول إطار المفهوم النظري لينزله منزلة الدليل للسلوك الواقعي".[1]

وهذا السلوك مرتبط بالإنسان في كافة حركاته وسكناته "**ومواطن الحياء التي في الإنسان كثيرة فإنَّ الحياء صفة يسري نفعها بمن قامت به في أكثر الأشياء ولهذا قال(الحياء خيرٌ كلُّه)...**"[2]

وهذه إستراتيجية في الإجمال والتفصيل: فالحياء صفة من الله،[3] والحياء من الإيمان، والحياء هو الترك، والحياء كلّه خير، فالله تعالى هو المقصد ومتى استحى المرء من الله انعكس أثره على سائر شؤونه.

ولنا أن نلخّص في هذا المخطط ما ذكرناه[4]:

التفسير بالمأثور	التفسير بالاعتبار والبصر
-اعتماد السند(تقنية العنعنة).	-تفسير بحقائق الخلق(الذرة العدم).
-اعتماد النقل(الرواة).	-تفسير بالقرآن: الحيرة(الضلالة).
-اعتماد الرواية.	-ربط المثل بسلوك الحياء.
-ربط المثل بالواقع.	-توجيه نحو الغاية (الله).

ثانيا: المآلات والنتائج

بات من الواضح بعد عرض المنطق الذي تتأسَّس عليه الوصايا في الاستدلال، ألا وهو"**الحجة البالغة**"، إذ في مجملها تنهض للدليل والعمل والسلوك والاعتبار، وحكمة هذه

[1]-تجديد المنهج في تقويم التراث، ص398، وينظر المرجع نفسه، عن الاعتبار العرفاني ص 56.

[2]-الوصية رقم 41، من كتاب الوصايا، ص84.

[3]-أدب الدنيا والدين، الماوردي، تحقيق طه الشيخ، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، 2010، ص337.

[4]-استوحينا مضمون هذه الفكرة من مرجع سابق الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص410.

الوصية قائمة على استجلاب أسرار الأشياء بأشرف العلوم، وهي هنا عند ابن عربي لا تقف على بلوغها من مصدر عقلي وفقط، بل تتجاوزه إلى المعرفة الصوفية والتجربة الروحية،القائمة على الكشف والعروج الروحي:

إلى الطبعة للنفس النزيهة للعقل المقيَّد بالأعراض والعلل

1-الإنشاء والمجاوزة:

إنَّ غاية الإنشاء والمجاوزة" منتهيان بتبديل المكونات التي تبني النشاط الإنساني وتحكم تصوراته للعالم والأشياء".[1] ونحن لا نسلّم بهذا الرأي، إذا أخذنا تأصيل الحركة الصوفية نجدها متأصلة في الإسلام، فضلا عن الجدال الواسع في توجهاتها وحركاتها، وقد وضَّح ابن عربي العلوم[2] وأقسامها كما يلي:

-علم العقل:علم يحصل بنظر في دليل،ومنه صحيح ومنه فاسد.

-علم الأحوال: علم سببه الذوق والوجدان.

-علم الأسرار: العلم فوق طور العقل، وهو نفث روح القدس في الروع.

وعلى كل فإنَّ غاية ومقصد الإنشاء والمجاوزة هو محاولة نحت معالم(الإنسان الكامل)، الذي يحتاج العلوم كلها" يحتاج في إدراكها لا إلى النظر وحده، ولا إلى العمل وحده، وإنَّما إليهما معا بالاستعانة بالتجربة أي النظر العملي الحي.[3]"

يبيّن ابن عربي علائم التقوى والاستدلال بها لكشف الأسرار وراء هذه الحقيقة في قوله تعالى﴿ ﴾[4].إذ يمكن أن نقسم الأدلة على مراحل هي:

[1]-الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص366.

[2]-ينظر الفتوحات المكية، ج1/164-169.

[3]-تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص286.

[4]-سورة الطلاق، الآية 3.

1-1-الأدلة المشتركة: يقول ابن عربي في طريق السؤال والإجابة وكأنَّه يجسّد حوارا افتراضيا بينه وبين من يزعم أنَّ التحقق الصوفي تواكل، وأنَّ السعي محال : "... **ولا يقول: إنَّ الله أمرني بالسعي على العيال، وأوجب عليّ النفقة عليهم فلا بدّ من الكدّ في الأسباب التي جرت العادة أن يرزقهم الله عندها، فهذا لا يناقض ما قلناه، فنحن إنَّما نهيناك عن الاعتماد عليها بقلبك، والسكون عندها، ما قلنا لك: لا تعمل بها...**"[1]

1-2-الأدلة الخاصة(الرؤيا والذوق الروحاني والمعرفة الصوفية):

الرؤيا في الخطاب الصوفي، تمثل الإمداد الرباني للمعرفة، والمتصوفة إنَّما كان نموذجهم الأول هو القرآن الكريم، والرؤيا في القرآن تهييء للطاقة التأويلية؛ ذلك" أنَّ النفس الإنسانية عامة هي جزء من العالم الروحاني في التصور العام للوجود، لذلك فان كل البشر قادرون على الإلمام بلمحة من هذا العالم من خلال تجربة الرؤيا...".[2]

وتكون صادقة حين يتجرد الإنسان من سطوة المادة ومسبباتها، حينها تتصل بالكشف والإلهام عند الصوفي؛ فهي من وجه التفكر والتحقق بالشيء يقول ابن عربي" **ولقد نمت عند تقييدي هذا الوجه، ثمَّ رجعت إلى نفسي وأنا أنشد بيتين لم أكن أعرفهما قبل ذلك، وهما:**

لا تعتمد إلَّا على الله فكلُّ أمـــــر بيد الله

وهذه الأسباب حجَّابه فلا تكن ألَّا مع الله

فانظر في نفسك: فإن وجدت أنَّ القلب سكن إليها فاتهم إيمانك واعلم أنَّك لست ذلك الرّجل، وإن وجدت قلبك ساكنا مع الله واستوى عندك حالة فقد السبب المعين، وحالة وجوده فاعلم أنَّك ذلك الرَّجل الذي آمن ولم يشرك بالله شيئا، وأنَّك من القليل، فإن رزقك من حيث لا تحتسب فذلك بشرى من الله أنَّك من المتقين."[3]

[1]-الوصية رقم 18، من كتاب الوصايا، ص53-54.

[2]-المتلقي في الخطاب القرآني، ص99-100.

[3]-الوصايا، ص 53.

وهذا السؤال الذي[1] اختزل إشكالية واسعة ومهمة بين أصحاب التحقق وهم المتصوفة، وأصحاب الرسوم وهم أهل الظاهر؛ الحجَّة التي استعملها المتصوفة ومنهم ابن عربي ناشئة عما يجده المتحقق في أحواله عند تدبره القرآن، فكان البيان [2]هو تعبير عما في الذهن والنفس وهو الدليل المضمر.

1-3-الاستنباط القرآني:

هذا الجزء من فهم ابن عربي يحيل إلى قمة تفاعل وعمل مدركات الصوفي العقلية والقلبية مع القرآن الكريم، وهذا التفاعل يسري بحسب الأحوال والمقاصد، وليست مجرد مصطلحات تعجَّ بها كتب التصوف، بل هي استشعار للمعاني القرآنية"**فاعلم ذلك فإنَّه معنى دقيق لا يشعر به إلا أهل المراقبة الإلهية الذين يراقبون بواطنهم وقلوبهم، فإنَّ الوقاية ليست إلا مع الله تمنع العبد من أن يصل إلى الأسباب المعتادة بحكم الاعتماد عليها لاعتماده على الله عزَّ وجلَّ وهذا معنى قوله(يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) فهذا مخرج التقوى في هذه الآية وهي وصية الله عبده وإعلامه بما هو الأمر عليه**"[3]، سرى هذا الحوار الحجاجي محققا الشروط الموفية التي يبلغها ابن عربي للجمهور، وهي العلم والعمل [4]والتجربة الروحية:

1-3-1-نموذج التقوى: هو جعل الله وقاية من الأسباب.

1-3-2-التفاعل مع النص القرآني: يحدث بالتجربة الروحيَّة، وهي التحقق والشعور(عمل قلبي)، والإمداد الرباني في الرؤيا.

1-3-3-التأويل لا يتوقف على العلم أو مجرد النظر في النص، بل يتطلب فهما استنباطيا تشتغل معه كافة المدركات، وهذا مأتاه قوله تعالى:" وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ "[5]، ويفهم من

---

[1]-عندما نتواصل نغير، ص221.

[2]- ينظر : تجديد المنهج في تقويم التراث،الباب الأول، ص23-73.

[3]-الوصايا، ص 54.

[4]-ينظر: العمل الديني وتجديد العقل، ص156، وينظر: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص291.

[5]-سورة البقرة، الآية 282.

هذا القول أنَّ الإنسان يتوفَّر" على عمليات استدلالية معقَّدة لا يستطيع المنطق التقليدي توضيحها فهي قادرة على الاستنتاج دون حجَّة أو دليل، وقادرة على خلق مشابهات ذاتية بل قادرة على الاستدلال دون معارف"[1].

والمتصوفة قد أدركوا هذه الواردات القلبية و الاستبصارات الذوقية، ففهموا الحكمة مباشرة، وهي أنَّ هذه المدارك كلُّها من الله تعالى، ومن غير الصواب، أن نشغّل العقل دون الذوق؛ولا البصر دون الخيال وهذا مسلكه أعمق في استنباطهم للقرآن الكريم؛ إذ يتطلّب الأمر دراسة وافية عميقة للمعرفة الذهنية عندهم.

2-الوصايا: نموذج تعليمي وتوريث صوفي

2-1-التكرار: (آلية مقصدية)

إنَّ الناظر لوصايا ابن عربي لظافر بعدَّة مؤشرات شكلية، تتمثل في إستراتيجية التَّكرار، أما الباحث عن هذا النموذج الإقناعي والاستدلالي، فإنَّه لا يقف عند حدود هذا النظر؛ إنَّ القول بأنَّ الخطاب الصوفي مستمدٌّ من الطريقة القرآنية، يجعل ذلك الأمر محفوفا بهذه النظرة، التي أعلن عنها ابن عربي في المقدمة الشعرية:

ذَكَّرْتُ قَوْمًا بِمَا أَوْصَى الإِلَهُ بِهِ وَلَيْسَ إِحْدَاثُ أَمْرٍ فِي الوَصِيَّةِ لِي

الآلية الاستدلالية هنا، تعمل بوصفها نهجا يحقق الترغيب والترهيب، ومحققا للعمل والاختصار والتنوع، وهي المقصد المهم من الوصية.

فالمتكلم" عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته، فإنَّ مطالبته لا تكتسي صيغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنَّما تتبع تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوّعة تجر الغير جرا إلى الاقتناع برأي المحاور وقد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع فتكون إذ ذاك، أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنَّه يراها رأي العين".[2]

---

[1]- عندما نتواصل نغيّر، ص109-110.

[2]-في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38.

2-2-المقصد والسلطة التعليمية:

وهذه الوصايا المتنوعة المذكورة تصدر من سلطة معروفه وهي هنا ابن عربي، فالقول بالترغيب أو الترهيب، مرتبط أيضا بالجهة المخولة، وهذا بالضبط ما نسعى لإلقاء الضوء عليه، فأول عنوان يتراءى على مرمانا هو**(وصية حكمية ينتفع بها المريد السالك والواصل والواقف عليها إن شاء الله)**، إذ هي سلطة تابعة للسلطة الإلهية، وما المقام هنا إلا مقام التوجيه والتعليم، صحَّ معها التأسي بالوحي القرآني والحديث النبوي الشريف، و قد بيّننا طرفا من هذا العنصر في المباحث السابقة.

وعلى كلّ فإنَّ مقصد إنشاء مدارك وتشغيلها يتعلق جزء منه بالتأثير في السالك أو غير السالك، ذلك أنَّ الإنشاء لا يقوم دفعة واحدة، بل يأخذ مسلك التدرج في الأساليب الإقناعية التي صحَّ معها النهوض إلى العمل.

يقول الزركشي:" ...وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ، والوعد والوعيد، لأنَّ الإنسان مجبول من الطبائع وكلُّها داعية إلى الشهوات ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقارع"[1].

لكنَّ ابن عربي لا يأخذ بهذا التكرار إلَّا بعد أن يحرّك كل المدارك لدى الإنسان، فيبدأ ببنائها الروحيّ، والعروج والارتقاء،فإذا جاء الفهم جاء التجديد والخلق:

إنَّا إنـــاثٌ لِمَا فِيـــــنَا نوَلِّـــدُهُ فَـلْـنَحْمَـدِ اللهَ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ رَجُـلِ

إنَّ الرِّجـَالَ الذِّيـــنَ الـعُـــــرْفُ عَيَّنَهُمْ هُمْ الإنَاثُ وَهُمْ سُؤْلِي وَهُمْ أَمَلِي

فالتعليم يأتي من سلطة مخولة تابعة لسلطة عليا هي الله، فصحَّ أنَّ هذا المقصد جليل، وصحَّ معه اتّباع سبيل الحق تعالى وهو الصدق المطلق، فقد قال الله تعالى:

[1]-البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت-لبنان،ج3، 9،1391.

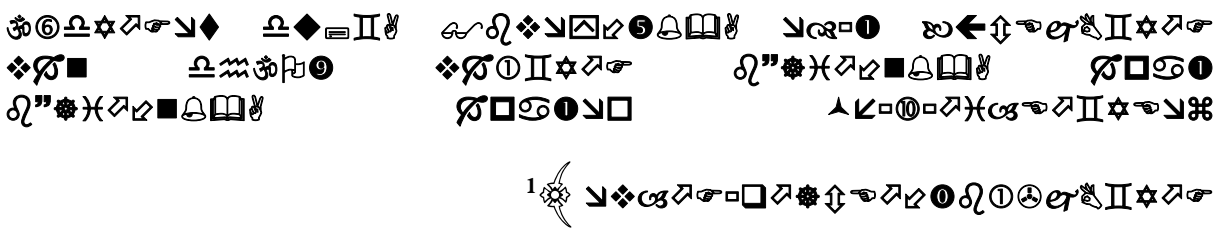

[1]

والحكمة ليس بمفهومها المعروف ما قلَّ مبناه ودلَّ معناه، وإنَّما هو التوجيه إلى الهدف؛ وكأنَّ المتصوفة ومن بعدهم ابن عربي قد أدركوا هذه الحكمة، فاشتغلوا بمصير الإنسان وهو المآل الحقيقي في الأخير إلى الله تعالى؛ وأدركوا معه أن يرتبط قولهم بالعمل والإنجاز، ولا يحيد ذلك عن سنَّة التطور.

نعيد التذكير أنَّ هذه الحكم والمواعظ والوصايا، هي نهج قرآني، لبناء الروح، والارتقاء بها إلى ربّها، هذا الارتقاء الذي لا يسع فرعون أن يناله بأسباب المادة والإشراك بالله، بل وسع الأنبياء عليهم السلام وهم المجتبون أن ينالوه.

وما التوريث في الوصايا إلَّا توريث لوصايا إلهية، قدوتها فيها الأنبياء وخاتمها النَّبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم، وقد مثَّل ابن عربي لهذا المقام التوريثي.

وفي الأخير بقي أن ننبّه أنَّ هذه الوصايا التي يضعها أمامنا ابن عربي، هي طريق مصدره القرآن والحديث وقد خلصنا في المباحث السابقة، أنَّ الواقف على العلم والمعرفة، إنَّما تؤيدهما التجربة الروحية، فمتى اتَّقى المتصوف أو غير المتصوف، خلص إلى الفهم الجديد والإبداع، وكان متعلّما معلّما لا مقلدا، فكأنَّ ابن عربي وضَّح الطريق وعلى السالك أن يأخذ بمقصد الوصية.

[1]–سورة النحل، الآية 125.

خاتمة

خاتمة:

بعد فراغنا من تحليل الإشكالية التي طرحناها بداية هذه الدراسة وإعطاء صورة تقريبية عن مجمل التساؤلات، أمكن القول إجمالا أنَّ:

ابن عربي وضع إستراتيجية حكيمة لتبليغ مقاصده والنهوض بمقصد المتلقي، تتمثل هذه الإستراتيجية في عمليتين اثنتين إن صحَّ أن نقول بأنَّها تداولية معرفيَّة تتمثَّل في:

1-**المقدّمة الشعريَّة:** وهي فواتح عرفانيَّة، تؤسس للتواصل العرفاني بين الخالق والمخلوق، حتى إذا تحقق هذا المقصد، صحَّ معه أنَّه علاقة أصليَّة تتأسس عليها العلاقات التخاطبية الأخرى بين النَّاس، وتكون مبنيَّة على أعلى ضروب التواصل والتعامل الأخلاقي الحيّ، إذ أنَّها تنبني على الصدق وانتفاء التظاهر، كما أنهَّا رسوخ للفائدة.

2-باقي الوصايا: جاءت على طريقة البيان والتفصيل، ونهض بهذا التخاطب التداولي "الإستراتيجية البيانية"؛ تتميَّز بكونها خاصيَّة في التفكير ينهض بها المتصوّف ليبلغ مقصد المتلقي، ولكي يصل إلى هذه الغاية يتَّخذ آلة البيان العربي وهي اللسان العربي، إذ يتميَّز هذا الأخير بوصفه لسان لغة تقرّب ولا تطابق، لغة تنشئ وتخلق في الآخر صورة الفعل، ومثلما هو الحال في أي حكمة، يستند الموصي أو يستوصي بأعلى النماذج الكلامية(آية، حديث، حكمة، موعظة، مثل...) الكفيلة بإحداث هذا التفاعل والتغيير في المتلقي.

- إلَّا أنَّ ابن عربي وبناءً على الطريقة الإجمالية والمجازية، أراد أن يحيل المتلقي أنَّ هذا البيان هو أصل في التفكير ومعرفة بالأحوال والمقامات، والسلوكيات، وهو ذو مقصد إلهي كذلك في الخلق، حتى إذا صحَّ هذا الوجه استقامت آلة البيان والتفصيل لتتوسّل بهذه الغاية، وتبعتها لغة النص، فصارت طريقة الشيخ في خطاب الوصايا مبنيَّة على أساس البحث عن المقصد الباطني، أو الإشاري الذي لا يمكن للغة

المجرَّدة(التوصل إلى المعنى من منطلق تركيبي دلالي)، أن تبلغ مقصد الخطاب، بل يعتمد فيه على تشغيل كافة المدركات الإنسانية؛ حسيَّة كانت أو معنويَّة، لذا نأمل أن يتابع هذا البحث دراسة لسانية عرفانية لهذه الآلية الذهنية " التفصيل والإجمال" في مشروع لاحق إن شاء الله .

- من هنا صار للبيان مقصد تداولي آخر يتمثَّل في المنطق الاستدلالي للوصايا، وتقنيَّة للحجاج تكفَّل نموذج الحجَّة الحيَّة للنهوض بهذا المنطق وممهته "تكوين إنسان كامل" يعمل بما علم من الحقائق والقيم لبلوغ المقاصد الباطنيَّة والإشارية للأقوال، حتى إذا استقام هذا المطلب المقصدي، ظفر المتلقي بالحُجَّة الحكميَّة، والتي غايتها توليد تجارب أخرى، وتكوثر معارف سار على هداها إلى الانتفاع السريع، ودام استمراره ولا أدَّل على "**وصيَّة حكميَّة**" التي كانت هدفا، وطريقة في التواصل، وحُجَّة حيَّة للظفر بالأسرار والحقائق.
- يمكن القول إذن أنَّ المتصوفة قد أعطوا مفهوما معمقا للإجمال والتفصيل، فَعُدَّ نَمطٌ في التفكير وطريقة في التبليغ اللساني، يتمثَّل الأوَّل في قدرة الذهن على تكوين معارف ومعلومات في أوجز عبارة ونهض بهذا الأمر النموذج المجازي والإشاري والمقصد الباطني، أمَّا الثاني فحصَّل **المقصد التداولي** المهم وهو الخلق والإبداع اللسانيّ الذي يراعي كل الأحوال والمقامات التي تستوعب المعنى لتحيل على المقصد من كلّ عملية تخاطبيَّة، وقد تجاوز رهان الفعل الإنشائي عند أوستن وسيرل بوصفه فعلا يؤدي إلى تغيير العالم؛ فالوصيَّة بوصفها كلاما إلهيا كانت عند المتصوفة مركزا للخلق والوجود معا .

تَمَّ بحمد الله وعونه

ثبت

المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع :

المصادر :

-القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

-فتح الباري(بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري)، ابن حجر العسقلاني، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر-القاهرة، ط2، 2012.

المراجع:

1. ابن عربي ومولد لغة جديدة، سعاد الحكيم، دندرة – لبنان، ط1، 1991.
2. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، تخريج أبي الفضل العراقي، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط1، 2005.
3. أدب الدنيا والدين، الماوردي، تحقيق طه الشيخ، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، 2010.
4. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، لعبد الهادي الظافر الشهري ،دار الكتاب الجديد ، بيروت -لبنان ،ط1 ، 2004.
5. الأفعال الإنجازية في اللغة العربية المعاصرة، علي محمود حجي الصراف، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، ط1، 2001.
6. الأفق التداولي(نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية)، إدريس مقبول،عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، 2011.
7. بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، عبد الباقي مفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2011.
8. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1391.

9. البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدور عمران، عالم الكتب الحديث، عمان–الأردن ، ط1، 2012.
10. بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت–لبنان، ط1، 2013.
11. تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط 4، 2012.
12. تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، آمنة بلعلى، دارالأمل، مدوحة– تيزي وزو،الجزائ، 2009.
13. التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، عمان –الأردن ،ط1 ،2011.
14. التداوليات وتحليل الخطاب، حافظ إسماعيلي علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة العلمية، ط1، 2014.
15. التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، دار كنوز المعرفة،ط1، 2016.
16. التداولية اليوم علم جديد للتواصل، آن ربول وجاك موشلر، ترجمة سيف الدين عقوس و محمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت–لبنان، ط1، 2003.
17. التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار التنوير –الجزائر، ط1، 2008.
18. التداولية والحجاج(مداخل ونصوص)، صابر حباشة، صفحات، ط1، 2008.
19. تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار الحديث، القاهرة–مصر، 2011.
20. التلقي والتأويل(مقاربة نسقية)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994.
21. الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل(بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، علي شبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس–الجماهيرية العظمى، ط1، 2010.

22. الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل،علي الشبعان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان،ط1، 2010.

23. الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة عالم الكتب الحدبث، إربد–الأردن، ط 2012.

24. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة، دط.

25. الرسالة القشيرية، للقشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمد بن الشريف، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، دط، 1989.

26. روح المعاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، دط.

27. شرح مشكلات الفتوحات المكية، ابن عربي والجيلي، يوسف زيدان، دار الأمير، القاهرة–مصر، ط1، 1994.

28. شعرية الخطاب الصوفي، عبد الله خضر محمد، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط1، 2016.

29. الصورة والآخر(رهانات الجسد واللغة والاختلاف)،فريد الزاهي، دار الحوار،اللاذقية– سوريا، ط1، 2013.

30. العقل واللغة والمجتمع(الفلسفة في العالم الواقعي)، جون سيرل، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف.

31. على طريق التفسير البياني، فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ج2، 2004.

32. العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط2، 1997.

33. عندما نتواصل نغير(مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، عبد السلام عشير، افريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب،2004.

34. فتح الباري(بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اماعيل البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر–القاهرة، ج1، ط2، 2012.

35. الفتوحات المكية ،ابن عربي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، دط، دت.

36. فلسفة التأويل(دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي)، نصر حامد أبو زيد، ط1، 1983.

37. فلسفة العقل(دراسة في فلسفة جون سيرل)، صلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة، القاهرة–مصر،2007.

38. فلسفة العقل(دراسة في فلسفة سيرل)، صلاح إسماعيل، دار قباء، القاهرة –مصر، 2007.

39. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000.

40. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 2003.

41. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–بيروت، ط1، 1998.

42. اللغة والتواصل الشفوي، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، ط، 2012.

43. اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة، دليل محمد بوزيان وآخرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2012.

44. المتلقي في الخطاب القرآني، حكيمة بوقرومة، دار المنتهى،الجزائر، ط1، 2015.

45. المحاورة(مقاربة تداولية)، حسن بدوح، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2012.

46. المعجم الصوفي، سعاد الحكيم، دندرة- لبنان،ط1، 1981.

47. مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، أحمد كروم، دار كنوز المعرفة، عمان-الأردن، ط1، 2015.

48. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979.

49. النص والسياق، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1999.

50. نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلمات، جون أوستن، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1991.

51. هكذا تكلم ابن عربي، نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

52. الوصايا، ابن عربي، تقديم لجنة التأليف والنشر، دار الإيمان، دمشق – سوريا، ط2، 1988.

53. الوظائف التداولية للتخاطب السياسي وأبعادها الحجاجية، نور الدين أجعيط، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، 2016.

المجلات والدوريات:

54. انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، فتيحة بوسنة، دط، دت.

55. تحليل الخطاب، مقاربة تداولية/ معرفية، حسان الباهي، مقال من مجلة البلاغة وتحليل الخطاب(البلاغة بين الحجاج والتأويل)،بني ملال المغرب، عدد1، 2014.

56. التداوليات المعرفية(تطبيقات على آيات من القرآن الكريم)، مولود هيد الله مزايط، مقال من مجلة تحليل الخطاب(البلاغة العربية أسئلة وتاريخ)، بني ملال- المغرب، العدد3، 2013.

57. حجاج التمثيل في القرآن الكريم(الاعتبار–التحول–التقابل)، عبد الرحيم وهابي، مقال من مجلة التداوليات وتحليل الخطاب، العدد 4، ربيع 2014.
58. القصدية التخاطبية في وصايا ابن عربي، آمنة بلعلى، مقال، قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري.
59. القصدية من الفلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وشن دلال:جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، جانفي 2010
60. مستويات الإضمار القولي في المقدمة الطَّلليَّة معلقة زهير بن أبي سلمى مقاربة تداولية، عواد كاظم وميسون مرازيق، المؤتمر العلمي الدولي التاسع، كلية التربية، جامعة واسط، جامعة ذي قار وجامعة طيبة.
61. مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكونبروديكرو، رشيد الراضي، مقال من مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر–ديسمبر، 2011، والعدد نفسه من المجلة: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، حتم عبيد.

الرسائل الجامعية:

62. الاستعارة في الخطاب الصوفي، جراح وهيبة(رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري، تيزي وزو– الجزائر، 2012.
63. آليات التواصل عند ابن عربي، لصالح بوترعة(رسالة ماجستير)، نوقشت يتاريخ 2008–2009 ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر.
64. بنية الخطاب الشعري في الفتوحات المكية لابن عربي، قدور رحماني(رسالة دكتوراء)، جامعة الجزائر، 2006.
65. الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث حتى القرن السابع الهجري، لآمنة بلعلى(رسالة دكتوراء)، نوقشت بتاريخ 2000، جامعة الجزائر.

66. القصدية في "الأدب الكبير" لابن المقفع(دراسة تداولية)، إبراهيم إيدير(رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري، تيزي وزو–الجزائر،2009.

67. قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني لثقبايث حامدة (رسالة ماجستير)، نوقشت بتاريخ2012/07/01 ، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر.

68. المقصدية عند عبد القاهر الجرجاني(دراسة تداولية)، فتيحة سوفلي(رسالة ماجستير)، 2015–2016، جامعة محمد خيضر بسكرة–الجزائر، ص29–30.

69. الوصايا في الأدب الأندلسي، حذيفة عبد الله،(رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية، 2007.

المراجع الأجنبيَّة:

70. Chaim Perlman et Lucie-Olbrechts-Tytica :traité de l'argumentation-la nouvelle rhétorique 1992.

71. J.C.Anscombre et O. Ducrot .Argumantativitté et informativité dans De la métaphysique à la rhétorique.

72. Jogn.R. Searl , L'intentionalité, Essai de philosophie des états mentaux, traduit par Claude Bichevin, Edition de minuit Paris 1985.

73. Problème de linguistique générale .Benveniste.Gallinard Paris1974.

ثبت الموضوعات

ثبت الموضوعات

مقدمة	أ
مدخل نظري: المصطلحات والمفاهيم	
توطئة	13
1-الخطاب لصوفي والكتابة الصوفية	14
أولا: الكتابة الصوفية	14
ثانيا: الخطاب الصوفي وخصائصه	15
2-التداولية مقاربة معرفية للمقاصد	19
أولا: مفهوم التداولية	20
ثانيا: المقاربة التداولية للمقاصد	22
المقاصد: المفاهيم والمصطلحات	23
القصد في الثقافة العربية	23
القصد في الثقافة الغربية	25
الفصل الأول: قصد التواصل	
تمهيد: التعريف بالمدونة والوصية	36
المبحث الأول: المقاصد الإفتتاحيَّة(المقاصد الإجماليَّة)	39
أولا: العنوان	40
ثانيا: المقدمة الشعرية	41
1-السياق التداولي	42
2-السياق المعرفي	43
3-المقصد الرئيس	43
4-مخطط عام لمقاصد القصيدة الشعرية	52
ثالثا: القصد ومستويات التواصل	52
1-الأدوار المهمَّة للغة ووظائفها البيانيَّة	53

2-التواصل العرفاني والروحاني	54
3-المقاصد التواصلية	56
المبحث الثاني: قصد الفهم والإفهام(المقاصد البيانية)	58
أوّلا: مفهوم اللغة والنص عند ابن عربي	58
1-المبدأ الوجودي	59
2-المبدأ الخطابي1	60
3-المبدأ الخطابي2	60
ثانيًا: النَّص عند ابن عربي	61
ثالثا: الفهم والإفهام والمقاصد الاعتبارية	63
رابعا: آليَّة المعرفة الربانيَّة والتأويل	64
1-المعارف والأسرار الإلهية	65
2-الوصيَّة النبويَّة: الإنشاء والإنسان الكامل (درجة التلقي المثلى)	67
الفصل الثاني: المقاصد الاعتبارية في حجاج الوصايا	
تمهيد	71
الإطار العام للحجاج في الوصايا	71
المبحث الأول: صدر الحجاج (مرحلة التهيؤ في المقدمة الشعرية)	73
أولا: الشعر والإقناع والحجاج	73
1-العاطفة	74
2-العاطفة ودليل العمل	76
3-العاطفة والأحكام القصدية المشتركة	77
4-الخيال (الممكن وتوسيع المدركات	77
ثانيا: العلم والحقيقة والعمل بالمقاصد	79

1-القيم 79
2-الحقائق 82
3-المواضع والسلم الحجاجي 83
4-الآلة الاعتبارية(آلة الاستدلال) 85
5-مخطط عام لمنطق الاستدلال والحجاج في وصايا ابن عربي 86
المبحث الثاني: العرض والبسط والمآلات 87
أولا: العرض 87
1-البناء الاستدلالي العام لوصايا ابن عربي 87
2-مبدأ الاعتبار والبصر عند ابن عربي 91
ثانيا: المآلات والنتائج 94
1-الإنشاء والمجاوزة في النموذج الاستدلالي الصوفي(الإنسان الكامل) 94
2-الوصايا نموذج تعليمي وتوريث صوفي 97
خاتمة 102
ثبت المصادر والمراجع 105
ثبت الموضوعات 115

ملخص الدراسة:

تسعى التداوليَّة إلى محاولة الإجابة عن السؤال المؤرّق أين المعنى؟ هذه الإشكالية لا يمكن مقاربتها إلَّا من خلال جملة من المفاهيم التداوليَّة المعرفيَّة التي تؤسّس للمقصد، باعتبار المعنى جزء من عملية تخاطبية تواصلية معقدة لا تنفك تتعلق بالإنجاز الكلامي ألمقصدي والحجاج التواصلي، لذلك أُعتبر الخطاب الصوفي في الوصايا أصل في هذه العلاقة، وتبيَّن أنَّ ابن عربي قد أصَّل لهذه النظرية(المقصديَّة)، لأنَّ لغة الخطاب في الوصايا تحيل إلى المقاصد من خلال مقصود العبارة؛ وهذا عين اللغة الطبيعيَّة، فهي إجمال مقصديّ داخلي ونفسي روحيّ، وهي بيان تفصيليٌّ تداولي تخاطبي.

الكلمات المفتاحية: المعنى، والتداوليَّة، والإنجاز الكلامي، والتواصل الحجاجي، والمقاصد الإجمالية، والمقاصد البيانية، والوصايا.

Résumé :

La Pragmatique cherche à répondre à la question où est le sens ? cette problématique ne peut pas l'approcher qu' à travers des notions de la pragmatique cognitive qui se fonde sur l'intention, en considérant que le sens est une partie de l'énonciation inséparable, qui concerne la réalisation intentionnelle et l'argumentation communicative, c'est pour cela, nous considérons que le discours SOUFI dans les recommandations c'est le principe de cette relation, il est à montrer que IBN ARABI est le précurseur de la théorie intentionnel parce que la langue du discours dans les recommandations conduit aux intentions à travers l'expression, c'est le point d'une langue naturelle ; c'est une intentionnelle interne, spirituel, c'est une épreuve pragmatique discursive.

Les mots clés :

Le sens ; les intentions pragmatique ; acte locutoire ; l'argumentation de communication ; les intentions ; le discours Soufi ; les recommandations.

Summary :

The Pragmatic attempts to answer the question where is the meaning? This problem can no tbe approached only through concepts of the cognitive pragmatics which are based on intention, considering that meaning is a part of the inseparable enunciation, which keeps on concerns intentional realization and communicative the argumentation , that is why it is considered that the SOUFI discourse in the recommendations a principle in this relation, and it shows that IBN ARABI is the precursor of the intentional theory because the language of the discourse in the recommendations leads to the Intentions through the word expression, which the point of the natural language; that is a whole spiritual inner intention, and it is a discursive pragmatic trial.

Keywords :

Meaning ; Pragmatic intentions; Locutory act; The communication argument; the intentions ; the Soufi discourse; the recommendations.